مراعاة النظير
فى
كلام الله العلىّ القدير

دراسة بلاغية فى إعجاز الأسلوب القرآنى

تأليف

د/ كمال الدين عبد الغنى المرسى
مدرس الدراسات الاسلامية
كلية التربية – جامعة الاسكندرية

مراعاة النظير
فى
كلام الله العلىّ القدير

دراسة بلاغية فى إعجاز الأسلوب القرآنى

تأليف

د/ كمال الدين عبد الغنى المرسى
مدرس الدراسات الاسلامية
كلية التربية – جامعة الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم أما بعد :

فإن من لطائف المعارف أن يدرك الإنسان وجها مليحا من وجوه الإعجاز البياني للنص القرآني ويعلم سرا جديدا من أسراره ، لأنه فى كل يوم يظهر لمن يتدبره معنى جديد من معانيه التي لا يحدها الحد ، وقد وجدت أن الأقدمين قد تكلموا فى الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع وصنّفوا فى ذلك كتبا ، واستشهدوا على تأييد أقوالهم بشواهد كثيرة من كلام العرب شعراً ونثراً ونظموها تحت عناوين هذه الفنون ، ووجدت أن كثيرين منهم تناولوا موضوع مراعاة النظير وذكروه في تآليفهم ، لكنهم لم يحدوه بحد ، ولم يحسموا التعريف فيه، وهو موضوع يستحق العناية والإفاضة فى شرح جوانبه وتجلية معانيه ، وظل الأمر حتى وقت كتابة هذا البحث على ما هو عليه من التشتت ، فتارة يعرفونه بالتناسب وأخرى بالمؤاخاة ، وثالثة بالائتلاف ورابعة بالتوفيق ... ، وكلها معان تحقق الثمرة المرجوة من مراعاة النظير ، وكما يفهم من ظاهر اللفظ أن المراد منه مراعاة نسق الكلام ، فإذا تحقق النسق الجيد ، مع سلامة المنطق تحقق البيان الواضح ، وبمثل ذلك تستمال القلوب.

ولقد حاولت فى هذا البحث أن أضم متفرق النشر ، وأجمع الشتات ، وأقدم خلاصة ما تبين لى بعد طول التنقيب والتحرى ، حتى انتهيت إلى تقديم تعريف جامع يساعدنا على فهم مراعاة النظير بطريقة تمكننا من فهم كلام السابقين مما اخترعوه من معانيهم أو سلكوه من طرقهم ، وتمكننا كذلك من فهم أساليب الإعجاز القرآنى الذى هو الغرض والغاية من تأليف هذا الكتاب .

الفصل الأول

معنى مصطلح: مراعاة النظير

وفيــه :

* مصطلح مراعاة النظير .
* حول مراعاة النظير كمصطلح .
* مفهوم مراعاة النظير لدى العلماء .
* بيان أن الإعجاز فى الإيجاز .
* مراعاة النظير فى سورة الفاتحة .

مصطلح مراعاة النظير

يقف الإنسان مبهورا حين يسمع القرآن ، ويدرك للوهلة الأولى أنه ليس من كلام البشر ، لما له من حلاوة تستشعرها نفس المؤمن ، فيقشعر له بدنه ويستجيب له قلبه ، فمن أين تأتيه هذه الحلاوة ؟

هناك وجوه كثيرة ذكرها العلماء فى سر حلاوة القرآن التى تجذب نفوس المؤمنين به وتأخذ بمجامع قلوبهم ، ولعل من أبرزها وأظهرها حسن الملائمة بين الألفاظ والمعانى ، والتناسب الرائع بين الكلمات وبين معانيها ومراميها، والانسجام المتحقق من تجاورها وتآخيها بحيث لا تجد منها نبوًا يحول دون الفهم ، ولا غرابة تقف دون الاستيعاب .

ومن يدقق النظر فيما ذكره العلماء فى وجوه إعجاز الأسلوب القرآنى تحت عناوين المناسبة والتناسب والمؤاخاة وتشابه الأطراف ، والمجانسة والائتلاف إلى غير ذلك من عناوين تفيد معنى الترابط والانسجام ، فإنه سوف يرى معى أنه من الأنسب جمع تلك العناوين تحت مسمى « مراعاة النظير » لأن هذا المصطلح يفيد كل هذه الوجوه ، كما يظهر من مسماه . ولسوف يتفق معى على أن معناه : « حسن الملاءمة فى الجمع بين الألفاظ والمعانى بما يحقق الترابط والانسجام » .

وعلى ذلك يكون مصطلح مراعاة النظير من علوم البلاغة ، ويحسن إدراجه مع موضوعات علم البديع لأنه أقرب إليها نسبا وألصق بها رحماً . فكما أن المجاز المرسل من موضوعات علم البيان وعلاقاته : السببية واعتبار ما كان وما سيكون ، والمحلية ... والجزئية ، فإن مراعاة النظير : من موضوعات علم البديع ، نقترح أن تكون علاقاته المناسبة والتناسب وحسن النسق والملاءمة وتشابه الأطراف والمؤاخاة والائتلاف والانسجام.

ومصطلح « مراعاة النظير » بهذا المعنى سوف نجده متحققا فى القرآن

كله من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ، فإن الكلمة إلى جوار أختها تربطها حسن المناسبة وأخوة الجوار فلا يصح استبدالها أو تقديمها أو تأخيرها فهى هكذا خلقت . وهذا هو السرّ فى تحدر القرآن وسلاسته وعذوبته ، وهو سرّ حلاوته وجمال طلاوته .

حول معنى مراعاة النظير كمصطلح

إن الكلمة كالنبتة لها ظروف تحيا فيها وتعيش ، وبقدر ما تكون الملاءمة الطبيعية بينها وبين أخواتها فى الأسلوب بقدر ما تكون نضارتها ويكون جمالها ، فالكلمة فى تركيبها تحيا وتعيش إذا تحققت لها الملاءمة مع مفردات التركيب التى سيقت فيه ، وبالتالى فهى تفقد حيويتها اذا اختلفت طبيعتها عن طبيعة التركيب الذى هو الوسط الموجودة فيه ، وما ينطبق على الكلمة ينطبق أيضا على التركيب ونسبته إلى بقية التراكيب الموجودة معه فى الموضوع ، وكذلك بالنسبة للمعانى ، فإن المعنى الواحد إنما يكتسب حيويته بالتضافر والترابط مع المعانى الأخرى المشتركة معه فى جسم الموضوع .

نضرب لذلك مثلا السمكة حيث لاتستطيع أن تحيا خارج الماء ، ولا تنتظر أن ترى منها الحيوية والرشاقة فى الحركة فى الهواء الطلق ، لأن الوسط مختلف ولأنها غير مهيأة له وليست هناك ملاءمة طبيعية بينها وبينه ، أمّا الماء فهى تحيا فيه، وتنسجم قدراتها فى وسطه ، فتكون الرشاقة فى الحركة والجمال فى السباحة والإبداع فى السعى ، وما ذاك إلا لتحقق عنصر الملاءمة الطبيعية بين السمكة والوسط الذى هو الماء .

كذلك فإن الإنسان حين يرى الجمل فى الصحراء فإن ذلك يكون شيئاً طبيعيا لا شذوذ فيه ، أما أن يرى فيلا فى الصحراء ، فذلك هو الشذوذ بعينه لأنه لايتصور أن يوجد الفيل إلاّ فى الغابة وفى الأماكن دائمة الخضرة وفيرة الماء فإذا ما خرج منها إلى الصحراء مات لأنه ليس لديه فى هذه الحالة ملائمة طبيعية للبيئة من حواليه .

وشأن الكلمة فى الأسلوب ، أن تتلائم مع اعتبارات السياق والمعنى حتى لا تفقد حياتها، وهى إن جاءت فى الأسلوب حشوا أو غير ملائمة للمعنى الذى سيقت من أجله كانت مثل الفيل الذى يكون فى الصحراءِ يستنكر الإنسان تواجده هنالك .

ومراعاة النظير فى اللغة كالملاءمة الطبيعية للكائنات فى الخلق ، فكما ترى الجمال فى الطبيعة بسبب هذه الملاءمة ، فإن مراعاة النظير تبعث على تحقق الجمال الطبيعى الذى لا شذوذ فيه بسبب ملاءمة المفردات وتجانسها وتناسقها وائتلافها . وقد لاحظ علماء اللغة ذلك وفطنوا إليه وذكروه فى أعمالهم الأدبية .

مفهوم مراعاة النظير لدى العلماء

قال صفىّ الدين الحلىّ عن هذا الأمر وهو مراعاة النظير : « هـو جمع شىء إلـى ما يناسبه من نوعـه أو ما يلائمـه من أحد الوجوه » [١] .

ومن أمثلته الشعرية قول المعرى :

وحرفٍ كنونٍ تحت راءٍ ولم يكن
بدالٍ يؤمُّ الرسمَ غيّرهُ النقطُ

ومعنى هذا البيت أن الشاعر يصف راكب الناقة الذى يقصد إلى الطلل البالى الذى أثر فيه نزول المطر حتى غيّر من شكله ، فوصف الناقة (الحرف) بأنها تشبه حرف النون ، وأن الرجل من فوقها يشبه حرف الراء ولم يكن يشبه حرف الدال ثم أن هذا الراكب يقصد (يؤم) الرسم الذى أثر فيه هطول الأمطار حتى غيّرته .

فقد ناسب فى جمعه بين حروف الهجاء وإن كان قصده غيرها لأن مراده بـ « الحـرف » الناقة ، وبـ « الراء » الراكب الذى يضرب رئتها، وبـ

---

١ - صفى الدين الحلىّ ؛ شرح الكافية البديعية فى علوم البلاغة ومحاسن البديع بتحقيق د. نسيب نشاوى دمشق ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م .

« الدال » الرافق بها ، وبـ « الرسم » : رسم المنزل ، وبالنقط المطر والمراعاة هنا فى ألفاظ بيت القصيدة ظاهرة .

قال ابن حجة الحموى فى معنى مراعاة النظير [١] :

هذا النوع ؛ أعنى مراعاة النظير ، يسمى التناسب ، والائتلاف ، والتوفيق والمؤاخاة ، وهو فى الاصطلاح : أن يجمع الناظم أو الناثر أمراً وما يناسبه لفظا لمعنى أو لفظا للفظ أو معنى لمعنى ؛ إذ القصد جمع شيء إلى ما يناسبه أو ما يلائمه من أحد الوجوه ، كقول البحترى :

من جلنار ناضر خده وأذنه من ورق الآس

(جلنار : زهر الرُّمّان ، والآس شجر دائم الخضرة وورقه وردى اللون)

فالمناسبة هنا بين الجلنار والآس ، والنضارة .

ومثله قول بعضهم فى مدح آل النبى ﷺ :

أنتم بنو طه ونون والضحى

وبنو تبارك فى الكتاب المحكم

وبنو الأباطح والمشاعر والصفا

والركن والبيت العتيق وزمزم

هذا الناظم أحسن فى مراعاة النظير ؛ وأتى فى البيت الأول بحسن المناسبة ، بين أسماء السور وفى البيت الثانى بحسن المناسبة بين الجهات الحجازية [٢] .

---

١ - ابن حجة الحموى ، خزانة الأدب وغاية الأرب ، شرح عصام شعيتو منشورات دار ومكتبة الهلال - بيروت لبنان

٢ - المصدر السابق، ج ١ / ٢٩٤ - ٢٩٨

وأنشد ابن حجة لنفسه :

ذكرت نظم اللآلى والحباب له

راعى النظير بثغر منه مبتسم

وقال : المناسبة هنا ما بين اللآلى ونظم الحباب ونظم الثغر بديعة عند أهل النظم ، هذا مع حسن التشبيه بالمناسبة البديعية ، وفى نور هذا المثال ما يمحو ظلمة الإشكال عند مراعاة النظير ، هذا مع رقة الانسجام ومغازلة عيون الغزل فى تسمية النوع البديعى وحلاوة توريته ، وقد حبست عنان القلم ، وإن كانت المهجة فى هذا المعرك الضيّق قد ذابت لئلا يقال كثر فارتابت [١] .

ومراعاة النظير هى أيضا « المزية » التى تحدث عنها عبد القاهر الجرجانى وجعل يردد معناها فى غالب صفحات كتابه دلائل الإعجاز . دون أن يعرفها بحد من حدود التعريف ولسوف تتفق معى أيها القارىء النبيل على التعريف الذى نصوغه لها لكن بعد أن نسمع سويا لكلام الإمام عبد القاهر الجرجاني فى فصله الذى كتبه فى تحقيق القول على البلاغة والفصاحة [٢] .

يقول عبد القاهر الجرجانى .

هل تجد أحدا يقول : هذه اللفظة فصيحة ، إلاّ وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملائمة معناها لمعانى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ؟

وهل قالوا : لفظة متمكنة ومقبولة ، وفى خلافه قلقة ونابية ، ومستكرهة إلاّ وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ، وبالقلق والنبو عن سوء تلاؤم ، وأن الأولى لم تلق بالثانية فى معناها وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية فى مؤداها ؟!

وهل تشك إذا فكرت فى قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا

١ - ابن حجة الحموى - خزانة الأدب ١ / ٢٩٨ .

٢ - عبد القاهر الجرجانى : دلائل الاعجاز ص ٩٢ ، ٩٣ .

سَمَاءُ أقْلعِي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الأمْرُ وَاستَوَتْ عَلَى الجوديّ وَقِيلَ بُعْداً للقَوْمِ الظَّالمِينَ ﴾ ، فَتجلّى لك منه الإعجاز ، ويهرك الذى ترى وتسمع ، أنك لم تجدَ مَا وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ؟ وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها ، وأن الفضل تناتج ما بينها ، وحصل من مجموعها .

إن شككت فتأمل ! هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهى مكانها من الآية ؟

قل « ابلعى » واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها . وكيف بالشك فى ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم فى أن كان النداء بيا دون أى نحو يا أيتها الأرض ، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال ابلعى الماء ، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها « نداء السماء » وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل « وغيض الماء » فجاء الفعل على صيغة « فُعِلَ » الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : « وقضى الأمر » ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو « استوت على الجودى» ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة قيل ، فى الخاتمة بقيل فى الفاتحة ، أفترى لشىء من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها. تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى فى النطق ؟ أم كل ذلك لما بين معانى الألفاظ من الاتساق العجيب ؟

فقد اتضح إذن اتضاحاً لايدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة ، وأن الألفاظ

تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لاتعلق له بصريح اللفظ » .

« ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر، كلفظ : الأخدع فى بيت الحماسة :

تلفّت نحو الحى حتى وجدتنى وُجِعت من الإصغاء ليتاً وأخْدعا

وبيت البحترى (١) :

وأنى وإن بلغتنى شرفَ الغنى وأعْتقت من رق المطامع أخدَعى

فإن لها فى هذين المكانين مالا يخفى من الحسن . ثم إنك تتأملها فى بيت أبى تمام (٢) :

يادهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خُرقك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة ، والإيناس والبهجة .

ومن أعجب ذلك لفظة « الشيء» فإنك تراها مقبولة حسنة فى موضع ، وضعيفة مستكرهة فى موضع ، وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول

---

١ – من رواد مدرسة شعراء المحدثين فى العصر العباسى توفى عام ٢٨٤هـ ، والبيت من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان .

٢– أبو تمام رأس من رؤوس مدرسة المحدثين ، توفى عام ٢٣١ هـ الأخدعان : عرقان فى صفحة العنق ، الخرق : الجهل والطيش والحمق، وتقويم الأخدعين كناية عن ترك الصلف والكبر ، والبيت فى الموازنة للآمدى والوساطة للجرجاني (١١٤ موازنة – ط صبيح ، ٤٢و٦٧ الوساطة – ط صبيح) .

عمربن أبى ربيعة المخزومي (١) :

ومن مالىء عينيه من شيء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وإلى قول أبى حية (٢) :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شيء لايمل التقاضيا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول : ثم انظر إليها فى بيت المتنبى (٣) :

لو الفلك الدوّار أبغضت سعيه لعوّقه شيء عن الدوران .

فإنك تراها تقلّ وتضؤل ، بحسب (٤) نبلها وحسنها فيما تقدم .

وهذا باب واسع ، فإنك تجد متى شئت الرجلين قد استعملا كلماً بأعيانها ثم ترى هذا قد فرع (٥) السماء ، وترى ذاك قد لصق بالحضيض .» (٦)

ولئن نجح فى تحقيق مراعاة النظير الكثير من الأدباء سواء فى الشعر أو فى النثر فى بعض تآليفهم ، إلا أن ذلك بالنسبة للقرآن أمر مطرد ثابت وعام ،

---

١ – زعيم الغزل القصصى فى عصر بنى أمية توفى عام ٩٣هـ شيء غيره : كناية عن النساء الجميلات ، والجمرة : الحصاة ترمى فى موسم الحج ويطلق على مكان رمى الجمرات أيضاً ، والبيض : النساء البيضاوات ، الدمى : جمع دمية وهى التمثال أو الصورة المنقوشة من الرخام .

٢ – أبو حية النميرى من شعراء الدولة الأموية المجيدين ، كان كثير التصنيع فى شعره ، والبيت من قصيدة مطلعها :

ألا حي من بعد الحبيب المغانيا لبسن البلى مما لبسن اللياليا

وشيء لا يمل التقاضيا : كناية عن الليل والنهار .

٣ – من قصيدة فى مدح كافور . وفى الوساطة للجرجانى ص ١٤٦ : وهذا البيت من قلائده – المتنبى – إلا أنك تعلم ما فى قوله : « شيء » من الضعف الذى يجتنبه الفحول ، ولا يرضاه النقاد .

٤ – أى بمقدار . ٥– أى علاً .

٦- عبد القاهر الجرجانى . دلائل الإعجاز ص

فهو أمر متحقق فى جميع ألفاظه وتراكيبه، مما يجعل المرء يسلم بأنه هكذا خلق ، وبأنه الأصل فى البيان الذى ينبغى للإنسان أن يتعلمه ، ولقد قال الله عز وجل ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمهٌ البيان ﴾ فالبيان من أشرف العلوم التي ينبغي للإنسان تحصيلها بمجرد بلوغه سن الإدراك والتمييز.

ثم إن هناك فارقا كبيراً بطبيعة الحال بين كلام البشر وكلام خالق البشر، فإذا أتينا بأمثلة وشواهد لمراعاة النظير من كلام الأدباء شعراً أو نثراً فإنما يكون ذلك على سبيل التقريب ، أما إذا استشهدنا بالآيات القرآنية ، فهى المثل الأعلى أو هى الروح ، وفارق كبير بين تمثال ينحته الإنسان من الحجر ويجيد فيه ، وبين الإنسان الذى يخلقه الله ، فالتمثال شكل لاحياة فيه وإن كان جميلا مقبولا، أما المخلوق المصنوع بعناية الله فهو شكل حيّ متفاعل فيه روح.

وكلام الله سبحانه وتعالى معجز من هذا المعنى ، لأنه فيه إبداع الصنع الإلهى فلا يمكن مضارعته بمهارة الإنسان مهما كان ، ومن هنا نستطيع أيضا أن نفهم أن كلام النبيّ ﷺ أيضا معجز تتبدى فيه الصنعة الإلهية لقوله عز وجلّ ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحى يوحى ﴾ ، فكلام محمد صلى الله عليه وسلم يتحقق فيه الصنع الإلهى ولا يمكن مضارعته أيضا ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام ينهىٰ عن كتابة كلامه فى بداية البعثة حتى لا يظن أنه من القرآن لأنه قريب منه ، فكان يقول (لا تكتبوا عنى ومن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه) .

ولقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم يستطيعون تمييز كلامه صلى الله عليه وسلم مما دسّ عليه ونسب إليه من الحديث ، وكانوا يقولون عن الحديث الزائف (إنه لا تلوح عليه أنوار النبوة) ، ومن يعش مع كلام النبىّ ﷺ سوف يجد فيه الإبداع والإمتاع لأنه تفسير راق لمعانى كلام الله عز وجل وسوف يلاحظ فيه مراعاة النظير كذلك على مدى واسع .

ومن كلام عبد القاهر الجرجانى عن المزية ، ومن خلال التعريفين السابقين لصفىّ الدين الحلىّ وابن حجة الحموى نستطيع أن نقرر أن مراعاة النظير فى الكلام « إبداع جمالى يقصد به المجانسة فى اللفظ والمعنى والمبنى فى الكلام ، حيث يجمع فى الكلام بين الشىء وما يلائمه » . (١)

ويقول ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب :

ويعجبنى قول السلامى فى هذا الباب :

والنقع (٢) ثوبٌ بالسيوف مطرزٌ ... والأرض فَرْشٌ بالجياد مُخَمَّل *

وسطورُ خيلك إنما ألِفَاتها ... سمرٌ تنقط بالدماء وتُشْكَلُ (٣)

فإنه ناسب بين الثوب والتطريز وبين الفَرْشِ والخَمْلِ وبين السطور والألفَاتِ والنَّقْطِ والشكل ومثله قول أبى العلاء المعرى :

دَعِ اليراعَ لقومٍ يفخرون بها ... وبالطِّوال الرُّدَيْنِيَّات فافتخر

فَهن أقلامك اللاتي إذا كتبت ... مَجْداً أتَتْ بمدادٍ من دمٍ هدر

فأبو العلاء أيضاً ناسب بين الأقلام والكتابة والمداد .

وغاية الغايات فى هذا الباب ، قول بديع الزمان الهمذانى ، من قصيدة يصف فيها طول السُّرى :

---

١ - هذا التعريف مقترح من عند المؤلف .

٢ - النقع : الغبار .

٣ - السمر : القنا أو الرماح . تنقط : تضع النقاط - وتشكل : تضع الحركات على الحروف .

* مُخَمَّل : فى الأصل (محمل) ولا معنى لها إنما هى مخمل بمعنى مزين ومُوشى ، لأن الجميل من الثياب : ذات الخَمْل والخمل فى الأصل ريش النعّام . فكأنما يريد أن يقول الأرض كالفرش الموشى بالجياد . والخَمْل هو الوشى والنقش .

لك الله من ليل أحـوبُ جيوبـه ∴ كأنى فى عين الردى أبداً كحل
كأن السرى ساق كأن الكرى طلا ∴ كأنا له شرب كأن المنـى نقـل
كأنا جيـاع والمطىّ لنـا فـم ∴ كأن الفلا زاد كـأن السرى أكل
كأن ينابيع الثرى ثـدى مرضـع ∴ وفى حجرها منّى ومن ناقتى طفل
كأنا على أرجوحـة فى مسيرنـا ∴ لغور بنا تهوى ونجد بنا تعلو (١)

ومنها فى المديح ، ولم يخرج عما نحن فيه من حسن المناسبة :

كأنى فى قوس لسانى لـه يـدٌ ∴ مديحى له فرع به أملى نبْلُ
كأنّ دَواتى مُطْفِلٌ حبشـيةٌ ∴ بنانى لها بعلٍ ونقشى لها نسل (٢)
كأن يدى فى الطرس غواصُ لُجَّة ∴ لـه كَلِمى دُرٌ به قيمتى تغلو

انظر أيها المتأمل إلى ملكة هذا الشاعر المفلق ، الذى ما دخل إلى بيت إلا وأسكن فيه ما يلائمه من المناسبات البديعية . نعم هذه الغايات التي تقف عندها فحول الشعراء ، وهذا الإمام المتقدم الذى صلى الحريرى خلفه ، وأشار إليه بقوله فى مقاماته :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابـة ∴ بسعدى شفيت النفس قبل التندم(٣)
ولكن بكت قبلىَ فهيج لِى البُكا ∴ بكاها فقلتُ الفضل للمتقـدم

فإن بديع الزمان الهمذانى هو الذى سبق الحريرى إلى نظم المقامات ، وسبك العلوم فى تلك القوالب الغريبة ، وعلى منواله نسج الحريرى ، واستعمل بعض أسماء مقاماته ، وقفى أثر عيسى بن هشام بالحرث بن همام، وعارض طرح الإسكندرى بما نسجه أبو زيد السروجى . وعلى كل

١ - الغور : المنخفض من الأرض أو الوادي - النجد : المرتفع من الأرض .
٢ - المطفل : ذات الولد والحبشية : لسوادها .
٣ - خزانة الأدب لابن حجة الحموى ص ٢٩٥ .

تقدير فالبديع عراية هذه الراية ، وعباس هذه السقاية .

نرجع إلى ما كنا فيه من حسن المناسبة فى مراعاة النظير ، فمن المستحسن فى هذا النوع قول بعضهم فى مليح معه خادم يحرسه :

ومن عجب أن يحرسوك بخادمٍ   وخدام هذا الحسن من ذاك أكثر
عذارِكَ ريحانٌ وثغرك جوهـــر   وخدُّك ياقــوتٌ وخالُـك عنبـــر

هذا الأديب المتمكن ناسب بين العذار والثغر والخد والخال* ، إذ الوجه لمصابيح هذه المحاسن جامع ، وبين ريحان وجوهر وياقوت وعنبر ، للملاءمة فى أسماء الخدام ، فلو ذكر شيئاً عن غير تناسب كان نقصاً وعيباً ، وإن كان جائزاً ، فإنهم عابوا على أبى نواس قوله :

وقد حلفت يمينـــــاً   مبرورة لا تكـــذبِ
برب زمزم والحـــــو   ض والصفا والمحصبِ (١)

فالحوض هنا أجنبى من المناسبة ، لأنه ما يلائم المحصب والصفا وزمزم، وإنما يناسب الصراط والميزان وما هو منوط بيوم القيامة .

ومثله ، فى عدم المناسبة ، قول الكميت :

وقد رأينا بها حوراء منعمـــة   بيضا تكامل فيها الدل والشنب (٢)

فإنهم قالوا الدلال لا يناسب الشنب وهو صحيح ، فإن الشنب من لوازم الثغر فلو ذكر معه اللعس (٣) وما ناسب ذلك ، مشى على سنن المناسبة

* الخال : الذى يكون فى الخد والجمع خيلان .

١ - المحصب : مكان فى وادى منى . وكل ما ذكر فى هذا البيت أسماء لشعائر الحج ، ما عدا الحوض فإنه فى الجنة .

٢ - الشنب : رقة الأسنان وشدة بياضها .

٣ - اللعس : السواد المستحسن فى الشفة .

وخلص من النقد .

« ويعجبنى فى هذا الباب قول مجير الدين بن تميم :

لو كنت تشهدنى وقد حمى الوغى   فى موقف ما الموت فيه بمعـزل
لترى أنابيب القناة علــى يــدى   تجرى دماً من تحت ظل القسطل (١)

انظر أيها المتأمل إلى حسن ما ناسب ، بين الأنابيب والقناة والجريان والقسطل ، مع انقياد التورية إلى طاعته وحسن تصرفه ، فإنى أنا محقق أن الأمير مجير الدين بن تميم من فرسان هذا الميدان، وممن أجاد فى هذا الباب ، وبالغ فى الإحسان إلى غريب المناسبة :

وراعى جانب مراعاة النظير حسن الزغارى ، بقوله :

كأن السحاب الغر لما تجمعــت   وقد فرقت عنا الهموم بجمعهــا
نياق ووجه الأرض قعب وثلجها   حليب وكف الريح حالب ضرعها (٢)

فإنه أتى بالمعنى الغريب ، والتشبيه البديع ، وحسن المناسبة فى مراعاة النظير ، مع حلاوة الانسجام ولطف الاستعارة .

ومما نظمته ، في هذا النوع ، قولي :

أبرزت معصماً نهــار وداعــي   شف بلوره فـزاد حريـــقى
راح دمعي يزعى النظير ويبدى   عند لثمي سلاسلاً من عقيق (٣)

فحسن المناسبة هنا (٥)، بين المعصم والسلاسل ، والعقيق والبلور ، مع إبراز تسمية النوع البديعي والنسيب المطرب الغزلي فى معنى توريته » (٤).

---

١ - القسطل : الغبار أثناء المعارك . والأنبوب الذى تجرى فيه المياه .
٢ - نياق : جمع مفرده ناقة وهى أنثى الجمل - القعب : وعاء يستعمل لحلب الماشية فيه - الضرع: بالنسبة لحيوان كالثدى للإنسان .
٣ - العقيق : من الحجارة الكريمة لونه أحمر مظلم قليلاً .
٤ - خزانة الأدب لابن حجة الحموى ص ٢٩٧ .

بيان أن الاعجاز في الإيجاز ومراعاة اللفظ لمقتضى الحال :

لسوف يظهر لنا أن الإعجاز كل الإعجاز يبدو واضحاً جليا فى أسلوب القرآن لاسيما فاتحة الكتاب ، فالإعجاز في هذه السورة المكية إنما يكون في تناسق آياتها السبع التي حوت كل معاني البلاغة والفصاحة كما حوت أصول الدين إجمالا بين كلماتها المتآخية المنسوقة في ائتلاف عجيب، والبلاغة العربية كما نعلم تدور على الإيجاز لأنه حين سئل أعرابى عن البلاغة قال : لمحة دالة [1] ، فالفاتحة لمحة دالة على الدين كله ، خوطب بها أهل الحجاز الذين هم أبلغ العرب وأفصحهم ، وقد عرف كل من ذاق طعم البلاغة العربية من مؤمن وكافر أن القرآن أبلغ الكلام وأفصحه ، لم يكابر في ذلك مكابر ، ولم يجادل فيه مجادل ، وأن الفاتحة من أعلاه فصاحة وبلاغة وجمعا للمعانى الكثيرة فى الألفاظ القليلة .

ونحن نورد فيما يلى معانى كلمات الفاتحة على التلخيص ثم نتبع ذلك التلخيص شيئا من التفصيل حتى نستمتع بمصاحبة الألفاظ المنسوقة بالعناية الإلهية فى هذه السورة الكريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم : أى أقرأ باسم الأله الأعظم المتصف بالرحمة دائما ، القادر على منحها أو منعها .

الحمـــد : مصدر معرف بالالف واللام جمع كل معانى الحمد ومظاهر الشكر .

للـــه : اللام للالصاق ولفظ الجلال لايتسمى به غيره وهو الجامع لكل صفات العظمة والألوهية .

---

١ - ابن عبد البر النمرى القرطبى ، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذهن والهاجس ، ص ٧١ ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .

رب العالمين : رب جميع الخلق من إنسان وحيوان وجن وملائكة ونبات وجماد .

الرحمــــن : المتصف بالرحمة ، ولا يتصف به غير الله ، والعرب تعرف ذلك .

الرحيـــــم : المانح للرحمة الواهب لها .

مالـــــك : الملك المهيمن الذى لاينازع فى ملكه .

يوم الدين : يوم القيامة ، يوم الجزاء – وفيها إنباء بالغيب ، وهو يوم مجموع له الناس والخلق جميعا .

اهدنـــا : فعل طلبى للهداية ، وفيه معنى الجماعة لأن الدين بالجماعة .

الصراط المستقيم : الطريق السليم الآمن ، وهو يحمل معنى الشريعة وهى جملة الأوامر والنواهى .

صراط الذين أنعمت عليهم : طريق المنعم عليهم بالهداية من النبيين والصديقين والمؤمنين كافة ، الذين مآلهم إلى الجنة .

غير المغضوب عليهم : غير المطرودين من الرحمة الذين مآلهم إلى النار والعياذ بالله . وهم الخارجون عن جادة الطريق بارتكابهم المعاصى بخروجهم عن حدود الشريعة ولم تؤثر عنهم توبة فاستحقوا الغضب .

فأنت ترى أن المناسبة واضحة فى هذه الكلمات من حيث إنها تجمع الكليات لتؤدى أعظم المعانى فى ترتيب محكم وسياق متين معجز ، يعجز عنه، سائر المخلوقات كما ترى التآلف بين حروفها فى سهولة النطق بها مع الفهم القريب لمعانيها .

مراعاة النظير فى سورة الفاتحة (أم الكتاب) :

السنة الإلهية فى هذا الكون - سواء كان كون إيجاد أو كون تشريع - أن يظهر سبحانه الشيء مجملاً ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجا ، وما مثل الهدايات الإلهية إلا مثل البذرة والشجرة العظيمة ، فهى فى بدايتها مادة حياة تحتوى على جميع أصولها ، ثم تنمو بالتدريج حتى تبسق فروعها بعد أن تعظم دوحتها ثم تجود عليك بثمرها . والفاتحة مشتملة على مجمل ما فى القرآن ، وكل ما فى القرآن تفصيل للأصول التى وضعت فيها . فإعجاز الفاتحة فى إيجازها وتلاؤم ألفاظها ومعانيها .

ولكى نفهم أن الاعجاز فى الإيجاز ينبغى لنا أن نتدارك سويا المعانى الخفية فى ألفاظ الفاتحة ونظم ألفاظها فى ذلك الترتيب البديع والنسق العجيب. ولسوف نتناول ذلك بشيء من التفصيل من كتاب تفسير المنار للمغفور له السيد رشيد رضا جاء فيه :

بســـم اللـــــــه :

« معنى البسملة الذى كان يفهمه النبى صلى الله عليه وسلم من روح الوحى : إقرأ يا محمد هذه السورة باسم الله الرحمن الرحيم على عباده، أى اقرأها على أنها منه تعالى لامنك ، فإنه برحمته بهم أنزلها عليك لتهديهم بها إلى ما فيه الخير لهم فى الدنيا والآخرة . وعلى هذا كان يقصد النبى صلى الله عليه وسلم من متعلق البسملة أننى أقرأ السورة عليكم أيها الناس باسم الله لا باسمى ، وعلى أنها منه لا منى :

ولفظ الجلالة (اللّه) علَم على ذات واجب الوجود قال ابن مالك : وضع معرّفاً . وقيل : أصله « إله » فحذفت همزته وأدخلت عليه الألف واللام ، وقيل : أصله الإله . والإله فى اللغة : يطلق على كل معبود ، ولذلك جمعوه على آلهة ، وما كل معبود سمّوه إلهاً يطلقون عليه اسم

(اللّه) فإن هذا الاسم الكريم كان خاصاً فى لغتهم بخالق السموات والأرض وكل شيء . فالتعريف فيه خصصه بالواحد الفرد الكامل ، كما جعلوا لفظ « النجم » بالتعريف خاصاً بالثريا . فكان العربى فى الجاهلية إذا سئل من خلقك أو من خلق السموات والأرض ؟ يقول : « الله » وإذا سئل عن بعض آلهتهم : هل خلَقت اللّات أو العزّى شيئاً من هذه الموجودات ؟ يقول : «لا» وقد احتج القرآن عليهم باعتقادهم هذا ... وإنما كانوا يتوسلون بها إلى الله ويعتقدون شفاعتها عنده . » (١)

الرحمــن الرحيــم :

« الجمع بين الرحمن والرحيم فيه معنى بديع ، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، وكأن الأول الوصف والثانى الفعل ، فالأول دال على أن الرحمة صفته أى صفة ذات له سبحانه ، والثانى دال على أنه يرحم خلقه برحمته ، أى صفة فعل له سبحانه ، فإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى : (وكان بالمؤمنين رحيما) ، (إنه بهم رءوف رحيم) ولم يجيء قط رحمن بهم ، فعلمت أن رحمن هو الموصوف بالرحمة . ورحيم هو الراحم برحمته .... وهذه النكتة لاتكاد تجدها فى كتاب ، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها . فالرحمن : الذى الرحمة وصْفُه ، والرّحيم : الراحم لعباده ، ولم يجيء رحمن بعباده ولا رحمن بالمؤمنين ، مع ما فى اسم الرحمن الذى هو على وزن (فَعلان) من سعة هذا الوصف وثبوت جميع معناه للموصوف به، ألا ترى أنهم يقولون : غضبان للممتليء غضباً، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن مليء بذلك ، فبناء فَعْلان للسعة والشمُول (٢).

---

١ - السيد رشيد رضا - تفسير المنار ص ٣٧ . طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٢ باختصار.

٢ - المصدر السابق ص ٤٠ نقله عن العلامة ابن القيم .

الحمد لله :

« هذه الجملة خبرية ولكنها استعملت لإنشاء الحمد – فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل فى أى أنواعه تحقق ، فهو ثابت له تعالى وراجع إليه ، لأنه متّصف بكل ما يحمد عليه الحامدون فصفاته أجلّ الصفات. وإحسانه عمّ جميع الكائنات ، ولأن جميع ما يصح أن يتوجه إليه الحمد مما سواه فهو منه جل ثناؤه . إذ هو مصدر الكون كله . فيكون له ذلك الحمد أولا وبالذات .

وأما معنى الإنشائية فهو أن الحامد جعلها عبارة عما وجهه من الثناء إلى الله تعالى فى الحال (١) .

رب العالمين :

يُشعر هذا الوصف ببيان وجه الثناء المطلق ، ومعنى الرب : السيد المربي الذى يسوس مسوده ويربيه ويدبره ، ولفظ « العالمين » جمع عالم بفتح اللام جمعَ جمعَ المذكرِ العاقلِ تغليباً ، وأريد به جميع الكائنات الممكنة ، أى : ربّ كل ما يدخل فى مفهوم لفظ العالم . وما جمعت العرب لفظ العالم ، الجمع إلا لنكتة تلاحظها فيه ، وهى أن هذا اللفظ لايطلق عندهم على كائن وموجود كالحجر والتراب ، وإنما يطلقونه على كل جملة متمايز لأفرادها صفات تقربها من العاقل الذى جمعت جمعه ، إن لم تكن منه فيقال : عالم الإنسان ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات . ونحن نرى أن هذه الأشياء هى التى يظهر فيها معنى التربية الذى يعطيه لفظ « رب » لأن فيها مبدأها وهو الحياة والتغذى والتولد ، وهذا ظاهر فى الحيوان . ولقد كان السيد جمال الدين الأفغانى رحمه الله تعالى يقول : الحيوان شجرة قطعت رجلها

---

١ – المصدر السابق ص ٤١

من الأرض فهي تمشي ، والشجرة حيوان ساخت رجلاه في الأرض ، فهو قائم في مكانه يأكل ويشرب ، وإن كان لاينام ولايغفل .

وبعض العلماء قال : إن المراد بالعالمين هنا أهل العلم والإدراك من الملائكة والإنس والجن ، ويؤثر عن الإمام جعفر الصادق عليه الرضوان . أن المراد به الناس فقط كما يدل على هذا وذاك استعمال القرآن في مثل : « أتأتون الذكران من العالمين ٢٦ :١٦٥» أي الناس ، ومثل « ليكون للعالمين نذيرا ٢٥ : ١ » ويرى بعضهم : أنه على هذا مشتق من العلم . ومن قال : يعم جميع أجناس المخلوقات يرى أنه مشتق من العلامة ، وربوبية الله للناس تظهر بتربيته إياهم ، وهذه التربية قسمان : تربية خلقية بما يكون به نموهم وكمال أبدانهم وقواهم النفسية والعقلية - وتربية شرعية تعليمية وهي ما يوحيه إلى أفراد منهم ليكمّل به فطرتهم بالعلم والعمل إذا اهتدوا به . فليس لغير رب الناس أن يشرع للناس عبادة ، ولا أن يحرم عليهم ويحلّ لهم من عند نفسه بغير إذن منه تعالى (١).

الرّحمن الرحيم :

تقدم معناهما ويبقى الكلام في إعادتهما ، والنكتة فيها ظاهرة وهي أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به إليهم كجلب منفعة أو دفع مضرة ، وإنما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه . وثم نكتة أخرى وهي أن البعض يفهم من معنى الرب : الجبروت والقهر ، فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال ، فكأن الله تعالى أراد أن يتحبب إلى عباده ، فعرفهم أن ربوبيته ربوبية رحمة وإحسان ليعلموا أن هذه الصفة هي التي ربما يرجع إليها معنى الصفات ، وليتعلقوا به ويقبلوا على اكتساب مرضاته ، منشرحة صدورهم ، مطمئنة قلوبهم ، ولا ينافي عموم

---

١ - المصدر السابق ص ٤٢

الرحمة وسبقها ما شرعه الله من العقوبات فى الدنيا ، وما أعده من العذاب فى الآخرة للذين يتعدّون الحدود . وينتهكون الحرمات ، فإنه وإن سمى قهراً بالنسبة لصورته ومظهره فهو فى حقيقته وعايته من الرحمة ؛ لأن فيه تربية للناس وزجراً لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الإلهية ، وفى الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم ، وفى الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم ، والوالد الرءوف يربى ولده بالترغيب فيما ينفعه والإحسان عليه إذا قام به ، وربما لجأ إلى الترهيب والعقوبة إذا اقتضت ذلك الحال ، ولله المثل الأعلى لا إله إلا هو وإليه يرجعون (١)

مالك يوم الدين .

قرأ عاصم والكسائى ويعقوب ، « مالك » والباقون « مَلك » وعليها أهل الحجاز والفرق بينهما أن المالك ذو الملك بكسر الميم ، والمَلِك ذو المُلْك بضمها ، والقرآن يشهد للأولى بمثل قوله : (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ٨٢ : ١٩) وللثانية بقوله : (لمن الملك اليوم ٤٠ : ١٦) قال بعضهم : إن قراءة مَلك أبلغ ، لأن هذا اللفظ يفهم منه معنى السلطان والقوة والتدبير . وقال آخرون : إن القراءة الأخرى أبلغ لأن الملك هو الذى يدبر أعمال رعيته العامة ، ولا تصرف له بشيء من شئونهم الخاصة ، والمالك سلطته أعم .

و (الدين) يطلق فى اللغة على الحساب وعلى المكافأة ، وورد « كما تدين تدان » وقال الشاعر .

ولم يبق سوى العُدْوا ن دنّاهم كما دانُوا

وعلى الجزاء وهو قريب من معنى المكافأة ، وعلى الطاعة ، وعلى الإخضاع ، وعلى السياسة يقال . دنته ، ودينته فلاناً (بالتشديد) أى وليته سياسته وهو قريب من معنى الإخضاع ، وعلى الشريعة ما يؤخذ العباد من

(١) المصدر السابق ص ١٢

التكاليف . والمناسب هنا من هذه المعانى الجزاء والخضوع وإنما قال « يوم الدين » ولم يقل « الدين » لتعريفنا بأن للدين يوماً ممتازاً عن سائر الأيام ، وهو اليوم الذى يلقى فيه كل عامل عمله ويوفّى جزاءه .

ولسائل أن يسأل : أليست كل الأيام أيام جزاء . وكل ما يلاقيه الناس فى هذه الحياة من البؤس هو جزاء على تفريطهم فى أداء الحقوق والقيام بالواجبات التى عليهم ؟ والجواب : بلى إن أيامنا التى نحن فيها قد يقع فيها الجزاء على أعمالنا ، ولكن ربما لايظهر لأربابه إلا على بعضها دون جميعها. والجزاء على التفريط فى العمل الواجب إنما يظهر فى الدنيا ظهورا تاماً بالنسبة إلى مجموع الأمة لا إلى كل فرد من الأفراد ، فما من أمة انحرفت عن صراط الله المستقيم ولم تراع سننه فى خليقته إلا وأحل بها العدل الإلهى ما تستحق من الجزاء كالفقر والذل وفقد العزة والسلطة . وأما الأفراد فإننا نرى كثيراً من المسرفين الظالمين يقضون أعمارهم منغمسين فى الشهوات واللذات ، نعم إن ضمائرهم توبخهم أحياناً وإنهم لا يسلمون من المنغصات (١) ، وقد يصيبهم النقص فى أموالهم . وعافية أبدانهم ، وقوة عقولهم . ولكن هذا كله لا يقابل بعض أعمالهم القبيحة ، لاسيما الملوك والأمراء الذين تشقى بأعمالهم السيئة أمم وشعوب . كذلك نرى من المحسنين فى أنفسهم وللناس من يبتلى بهضم حقوقه ، ولا ينال الجزاء الذى يستحقه على عمله ، فإن كان قد ينال رضاء نفسه وسلامة أخلاقه وصحة ملكاته . فما ذلك كل ما يستحق ، وفى ذلك اليوم يوفّى كل فرد من أفراد العاملين جزاءه كاملا لايظلم شيئا منه ، كما قال تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره ٩٩ : ٧-٨) (٢).

علّمنا الله أنه رحمن رحيم ليجذب قلوبنا إليه ، ولكن هل يشعر كل

---

١ ، ٢ . المصدر السابق ص ٤٦ ، ٤٧

عباده بهذه المنة فينجذبوا إليه الانجذاب المطلوب ؟ أليس فينا من يسلك كل سبيل لايبالى بمستقيم ومعوج ؟ بلى ، ولهذا أعقب سبحانه ذكر الرحمة بذكر الدين ، فعرفنا أنه يدين العباد ويجازيهم على أعمالهم فكان من رحمته بعباده أن رباهم بنوعى التربية كليهما : الترغيب والترهيب ، كما تشهد بذلك آيات القرآن الكثيرة ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم ١٥ : ٤٩ – ٥٠ ﴾ (١).

إيّـــاك نعبـــد :

ما هى العبادة ؟ يقولون هى الطاعة مع غاية الخضوع ، وما كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل ، وتجليه للأفهام واضحا لايقبل التأويل ، فكثيراً ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه ويعرفون الحقيقة برسومها ، بل يكتفون أحيانا بالتعريف اللفظى ويبيّنون الكلمة بما يقرب من معناها، ومن ذلك هذه العبارة التى شرحوا بها معنى العبادة ، فإن فيها إجمالاً وتساهلاً. وإننا إذا تتبعنا آى القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لـ « عبد » وما يماثلها ويقاربها فى المعنى كخضع وخنع وأطاع وذل – نجد أنه لاشيء من هذه الألفاظ يضاهى « عبد » ويحل محلها ويقع موقعها ، ولذلك قالوا : إن لفظ « العبـاد » مأخـوذ من العبـادة، فتكثر إضافتـه إلى اللـه تعالى ، ولفظ « العبيد » تكثر إضافته إلى غير الله تعالى ، لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق، وفرّق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى ، ومن هنا قال بعض العلماء : إن العبادة لاتكون فى اللغة إلا لله تعالى ، ولكن استعمال القرآن يخالفه .

يغلو العاشق فى تعظيم معشوقه والخضوع له غلوّا كبيراً حتى يُفنى هواه فى هواه ، وتذوب إرادته فى إرادته ، ومع ذلك لايسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ، ويبالغ كثير من الناس فى تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء ، فترى من خضوعهم لهم وتحرّيهم مرضاتهم مالا تراه من المتحنثين القانتين، ولم يكن العرب يسمون شيئا من هذا الخضوع عبادة ، فما هى العبادة إذاً ؟ .

---

١ – المصدر السابق ص ٤٨

« تدل الأساليب الصحيحة ، والاستعمال العربى الصّراح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ، ناشىء عن استشعار القلب عظمة للمعبود لايعرف منشأها ، واعتقاده بسلطة له لايدرك كنهها وماهيتها. وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ، ولكنها فوق إدراكه ، فمن ينتهى إلى أقصى الذل لملك من الملوك لايقال إنه عبده وإن قبّل موطىء أقدامه ، مادام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعهود ، أو الرجاء بكرمه المحدود ، اللهم إلا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى ، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا، لأنهم أطيب الناس عنصراً ، وأكرمهم جوهراً وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد إلى الكفر والإلحاد ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً وعبدوهم عبادة حقيقية .

للعبادة صور كثيرة فى كل دين من الأديان شُرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهى الأعلى الذى هو روح العبادة وسرها ، ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر فى تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه ، والأثر إنما يكون عن ذلك الروح ، والشعور الذى قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع ، فإذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة ، كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنساناً .

خذ إليك عبادة الصلاة مثلا ، وانظر كيف أمر الله بإقامتها دون مجرد الإتيان بها، وإقامة الشيء : هى الإتيان به مقوما كاملا يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره ، وآثار الصلاة ونتائجها هى ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ٢٩ : ٤٥ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسّه الشر جزوعاً * وإذا مسّه الخير منوعا * إلا المصلين ٧٠: ١٩ - ٢٢ ﴾ ، وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ [1]

---

١ - السيد رشيد رضا - تفسير المنار ص ٤٨ »

مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيها المؤدى إلى غايتها بقوله : ﴿ فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون * ويمنعون الماعون ١٠٧ : ٤ - ٧ ﴾ فسماهم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ، ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التى هى توجه القلب إلى الله تعالى المذكر بخشيته ، والمشعر بعظم سلطانه ، ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون . وذكر الأستاذ الإمام أن الرياء ضربان : رياء النفاق وهو العمل لأجل رؤية الناس ، ورياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائدته ، ولا ملاحظة من يعمل له ويتقرب إليه به ، وهو ما عليه أكثر الناس ، فإن صلاة أحدهم فى طور الرشد والعقل هى عين ما كان يحاكى به أباه فى طور الطفولية عندما يراه يصلى - يستمر على ذلك بحكم العادة من غير فهم ولا عقل ، وليس لله شيء فى هذه الصلاة ، وقد ورد فى بعض الأحاديث : أن « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا » (١) وأنها تلف كما يلف الثوب البالى ويضرب بها وجهه » . وأما الماعون فهو المعونة والخير الذى يتقدم فى الآية الأخرى أن من شأن الإنسان أن يكون منوعا له إلا المصلين .

وإيّـــاك نستعيـــن :

والاستعانة : طلب المعونة ، وهى إزالة العجز والمساعدة على إتمام العمل الذى يعجز المستعين عن الاستقلال به بنفسه .

ثم تكلم الأستاذ الإمام على حصر العبادة والاستعانة فى الله تعالى الذى دل عليه تقديم المفعول (إياك) على الفعل (نعبد) و (نستعين) فقال ما مثاله :

---

١ - هذا الحديث من سياق شيخنا غير مخرج ، وهو فى الكبير الطبرانى من حديث ابن عباس وسنده ضعيف . وراجع تفسير المنار ص ٤٩

أمرنا الله تعالى بألا نعبد غيره ، لأن السلطة الغيبية التى هى وراء الأسباب ليست إلا له دون غيره ، فلا يشاركه فيها أحد فيعظم تعظيم العبادة ، وأمرنا بألا نستعين بغيره أيضا ، وهذا يحتاج إلى البيان لأنه أمرنا أيضا فى آيات أخرى بالتعاون ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ٥ : ٢ ﴾ فما معنى حصر الاستعانة به مع ذلك ؟ (١)

« الجواب : أن كل عمل يعمله الإنسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الأسباب التى اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدية إليه وانتفاء الموانع التى من شأنها بمقتضى الحكمة أن تحول دونه وقد مكّن الله تعالى الإنسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب ، وحجب عنه البعض الآخر ، فيجب علينا أن نقوم بما فى استطاعتنا من ذلك.ونبذل فى إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة ، وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضا على ذلك . ونفوض الأمر فيما وراء كسبنا إلى القادر على كل شيء ، ونلجأ إليه وحده ، ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه ، إذ لايقدر على ما وراء الأسباب الممنوحة لكل البشر على السواء إلا مسبب الأسباب ، ورب الأرباب ، فقوله تعالى : « وإياك نستعين » متمم لمعنى قوله : « إياك نعبد » لأن الإستعانة بهذا المعنى فزع من القلب إلى الله وتعلق من النفس به ، وذلك من مخ العبادة ، فإذا توجه العبد بها إلى غير الله تعالى كان ضربا من ضروب العبادة الوثنية التى كانت ذائعة فى زمن التنزيل وقبله ، وخصت بالذكر لئلا يتوهم الجهلاء أن الاستعانة بمن اتخذوهم أولياء من دون الله ، واستعانوا بهم فيما وراء الأسباب المكتسبة لعامة الناس ، هى كالاستعانة بسائر الناس فى الأسباب العامة ، فأراد الحق جل شأنه أن يرفع هذا اللبس عن عباده ببيان أن الاستعانة بالناس فيما هو فى استطاعة الناس إنما هو ضرب من استعمال الأسباب المسنونة ، وما منزلتها إلا كمنزلة

---

١ - راجع ، تفسير المنار ص ٤٩ .

الآلات فيما هى آلات له ، بخلاف الاستعانة بهم فى شئون تفوق القدرة والقوى الموهوبة لهم ، والأسباب المشتركة بينهم ، كالاستعانة فى شفاء المرضى بما وراء الدواء ، وعلى غلبة العدو بما وراء العدّة والعدّة ، فإن ذلك مما لايجوز الفزع والتوجه فيه إلى غير الله تعالى صاحب السلطان الأعظم، على مالا يصل إليه سلطان أحد من العالم :

ضرب الأستاذ الإمام مثلا لذلك ، الزارع يبذل جهده فى الحرث والعزق وتسميد الأرض وريها ، ويستعين بالله تعالى على إتمام ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية أو الأرضية ، ومثل بالتاجر يحذق فى اختيار الأصناف ، ويمهر فى صناعة الترويج ، ثم يتوكل على الله فيما بعد ذلك . ثم قال : ومن هنا تعلمون أن الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم ، وتيسير أمورهم ، وشفاء أمراضهم ، ونماء حرثهم وزرعهم ، وهلاك أعدائهم، وغير ذلك من المصالح ، هم عن صراط التوحيد ناكبون ، وعن ذكر الله معرضون .

أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة « وإياك نستعين » إلى أمرين عظيمين هما معراج السعادة فى الدنيا والآخرة :

(أحدهما) : أن نعمل الأعمال النافعة ، ونجتهد فى إتقانها ما استطعنا، لأن طلب المعونة لايكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفه حقه ، أو يخشى ألا ينجح فيه ، فيطلب المعونة على إتمامه وكماله ، فمن وقع من يده القلم على المكتب لايطلب المعونة من أحد على إمساكه ، ومن وقع تحت عبء ثقيل يعجز عن النهوض به وحده ، يطلب المعونة من غيره على رفعه ، ولكن بعد استفراغ القوة فى الاستقلال به، وهذا الأمر هو مرقاة السعادة الدنيوية ، وركن من أركان السعادة الأخروية .

(وثانيهما) : ما أفاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك ، وهو روح الدين ، وكمال التوحيد الخالص الذى

يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الأغيار ، ويفك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين ، والشيوخ الدجالين ، ويطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين، من الأحياء والميتين ، فيكون المؤمن مع الناس حرا خالصاً وسيداً كريما، ومع الله عبداً خاضعاً ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ٣٣ : ٧١ ﴾.

وأقول أيضا : عبادة الله تعالى هى غاية الشكر له في القيام بما يجب لألوهيته، واستعانته هى غاية الشكر له في القيام بما يجب لربوبيته ، أما الأول فظاهر لأنه هو الإله الحق فلا يعبد بحق سواه ، وأما الثاني : فلأنه هو المربي للعباد الذى وهب لهم جميع ما تكمل به تربيتهم الصورية والمعنوية ، ومن ثم تعلم أن إيراد ذكر العبادة ، والاستعانة بعد ذكر اسم الجلالة الأعظم ، واسم الرب الأكرم ، إنما هو لترتبهما عليهما من قبيل ترتيب النشر على اللف . والاستعانة بهذا المعنى ترادف التوكل على الله وتحل محله ، وهو كمال التوحيد والعبادة الخالصة ، ولذلك جمع القرآن بينهما فى مثل قوله تعالى : ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكّل عليه ١١ : ١٢٣ ﴾ .

فهذه الاستعانة هى ثمرة التوحيد واختصاص الله تعالى بالعبادة ، فإن من معنى العبادة : الشعور بأن السلطة الغيبية التى هى وراء الأسباب العامة ، الموهوبة من الله تعالى لعبادة كافة ، هى لله وحده ، كما تنطق به الآية التى استشهدنا بها آنفا على قرن العبادة بالتوكل ، فمن كان موحدا خالصاً لا يستعين بغير الله تعالى قط ، فما كان من أنواع المعونة داخلا فى حلقات سلسلة الأسباب كان طلبه بسببه طلبا من الله تعالى ولكنه يحتاج فى تحقق ذلك إلى قصد وملاحظة وشهود قلبى ، وما كان غير داخل فيها يتوجه فى طلبه إلى الله تعالى بلا واسطة ولا حجاب ، وبهذا البيان تعلم أنه لا منافاة بين التوحيد والتوكل وبين الأخذ بالأسباب وإقامة سنن الله تعالى فيها ، بل

الكمال والأدب في الجمع بينهما .

« ثم إن لفظ الاستعانة يشعر بأن يطلب العبد من الرب تعالى الإعانة على شيء له فيه كسب ليعينه على القيام به ، وفي هذا تكريم للإنسان يجعل عمله أصلا في كل ما يحتاج إليه لإتمام تربية نفسه وتزكيتها ، وإرشاده له إلى أن ترك العمل والكسب ، ليس من سنة الفطرة ولا من هدى الشريعة ، فمن تركه كان كسولا مذموماً لا متوكلا محمودا ، وبتذكيره من جهة أخرى يضعفه لكيلا يغتر ، فيتوهم أنه مستغن بكسبه عن عناية ربه ، فيكون من الهالكين في عاقبة أمره . »

« إذا تدبرت هذا فهمت منه نكتة من نكت تقديم العبادة على الاستعانة، وهي أن الثانية ثمرة للأولى ، ولا ينافي هذا أن العبادة نفسها مما يستعان عليه بالله تعالى ليوفق العابد للإتيان بها على الوجه المرضى له عزّ وجل . لا منافاة بين الأمرين لأن الثمرة التي تخرج من الشجرة تكون حاوية للنواة التي تخرج منها شجرة أخرى . فالعبادة تكون سببا للمعونة من وجه ، والمعونة تكون سبباً للعبادة من وجه آخر ، كذلك الأعمال تكوّن الأخلاق التي هي مناشيء الأعمال . »

« وأقول أيضاً إن نكتة تقديم « إياك » على الفعلين « نعبد ، ونستعين » هي إفادة الاختصاص والحصر فالمعنى إذاً : نعبدك ولا نعبد غيرك ، نستعينك ولا نستعين بسواك . وقد استخرج له بعض الغواصين على المعاني نكتاً أخرى (منها) أن « إياك » ضمير راجع إلى الله تعالى ، وقيل إن « إيا » اسم ظاهر مضاف إلى الضمير الذي هو الكاف ، فتقديمه على الوجهين يؤذن بالاهتمام به الذي هو العلة الأصلية العامة للتقديم في هذه اللغة (ومنها) أنه من الأدب أيضاً ، (ومنها) أن إفادة الحصر بهذا الاسم أو « الضمير » المقدم على الفعل أبلغ من إفادة الحصر بالضمير المتصل الذي يقرن به ما يدل على ذلك من الكلم ، كقولك : إنما نعبدك وإنما نستعينك ، أو نستعين بك وحدك واعادة إياك مع الفعل الثاني يفيد أن كلا من العبادة والاستعانة مقصود

بالذات فلا يستلزم كل منهما الآخر . ذلك بأن الاستعانة بالله تعالى يجب أن تكون عامة فى كل شيء ، ومن الناس من لا يستعين بالله على شيء من أعماله الاختيارية ، زعما منهم أنهم يستقلون بذلك بدون إعانة خاصة منه تعالى كالقدرية . وأفضل الاستعانة ما كان على الطاعة والخير، وقد أخذ النبى ﷺ بيد معاذ يوماً وقال : « والله إنى لأحبك ، أوصيك يا معاذ لاتدعَنّ فى دبر كل صلاة أن تقول : « اللهم أعنّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » .

إهدنا الصراط المستقيم : *

معنى الهداية لغة أنها : الدلالة بلطف على ما يوصل إلى المطلوب ، وقد منح الله تعالى الإنسان أربع هدايات يتوصل بها إلى سعادته .

(أولاهما) : هداية الوجدان الطبيعى والإلهام الفطرى . وتكون، للأطفال منذ ولادتهم فإن الطفل بعد ما يولد يشعر بألم الحاجة إلى الغذاء فيصرخ طالباً له بفطرته ، وعندما يصل الثدى إلى فيه يلهم التقامه وامتصاصه .

(الثانية) : هداية الحواس والمشاعر ، وهى متممة للهداية الأولى فى الحياة الحيوانية ، ويشارك الإنسان فيهما الحيوان الأعجم ، بل هو فيهما أكمل من الإنسان ، فإنَّ حواس الحيوان وإلهامه يكملان له بعد ولادته بقليل، بخلاف الإنسان فإن ذلك يكمل فيه بالتدريج فى زمن غير قصير ، ألا تراه عقب الولادة لاتظهر عليه علامات إدراك الأصوات والمرئيات ، ثم بعد مدة يبصر ، ولكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات ، فيحسب البعيد قريباً فيمد يديه إليه ليتناوله وإن كان قمر السماء ولا يزال يغلط حسه حتى فى طور الكمال .

(الهداية الثالثة) : العقل ، خلق الله الإنسان ليعيش مجتمعاً ولم يعط

---

* المصدر السابق ص ٥٢ .

من الإلهام والوجدان ما يكفى مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطى النحل والنمل ، فإن الله قد منحها من الإلهام ما يكفيها لأن تعيش مجتمعة يؤدى كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها ، ويؤدى الجميع وظيفة العمل للواحد ، وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد .

أما الإنسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر له مثل ذلك الإلهام ، فحباه الله هداية الحس والإلهام ، وهى العقل الذى يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبين أسبابه ، وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيرا ، ويرى العود المستقيم فى الماء معوجاً ، والصفراوى يذوق الحلو مرا . والعقل هو الذى يحكم بفساد مثل هذا الإدراك .

(الهداية الرابعة) : الدين ، يغلط العقل فى إدراكه كما تغلط الحواس ، وقد يهمل الإنسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية والنوعية ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال ، فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى توردهه موارد الهلكة . فإذا وقعت المشاعر فى مزالق الزلل ، واسترقت الحظوظ والأهواء العقل فصار يستنبط لها ضروب الحيل ، فكيف يتسنى للإنسان مع ذلك أن يعيش سعيدا ؟ وهذه الحظوظ والأهواء ليس لها حد يقف الإنسان عنده وما هو بعائش وحده ، وكثيرا ما تتطاول به إلى ما فى يد غيره ، فهى لهذا تقتضى أن يعدو بعض أفراده على بعض ، فيتنازعون ويتدافعون ، ويتجادلون ويتجالدون ، ويتواثبون ويتناهبون حتى يفنى بعضهم بعضا ، ولا تغنى عنهم تلك الهدايات شيئا ! فاحتاجوا إلى هداية ترشدهم فى ظلمات أهوائهم ، إذا هى غلبت على عقولهم ، وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها ويكفوا أيديهم عما وراءها . ثم إن مما أودع فى غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان ينسب إليها كل مالا يعرف له سببا . لأنها هى الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده ، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة ، فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايات الثلاث إلى تحديد ما يجب

عليه لصاحب تلك السلطة الذى خلقه وسوّاه ، ووهبه هذه الهدايات وغيرها، وما فيه سعادته فى تلك الحياة الثانية ؟ كلا إنه فى أشد الحاجة إلى هذه الهداية الرابعة — الدين — وقد منحه الله تعالى إياها .

أشار القرآن إلى أنواع الهداية التى وهبها الله تعالى للإنسان فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ٩٠ : ١٠ ﴾ أى طريقى السعادة والشقاوة والخير والشر : وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة ، وهداية العقل وهداية الدين ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ٤١ : ١٧ ﴾ أى دللناهم على طريقى الخير والشر ، فسلكوا سبل الشر المعبر عنه بالعمى . وذكر غير هاتين الآيتين مما فى معناهما.

بقى معنا هداية أخرى وهى المعبر عنها بقوله تعالى: ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ٦ : ٩٠ ﴾ فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره ، فالهداية فى الآيات السابقة بمعنى الدلالة ، وهى بمنزلة إيقاف الإنسان على رأس الطريقين : المهلك ، والمنجى ، مع بيان ما يؤدى إليه كل منهما ، وهى مما تفضل الله به على جميع أفراد البشر . وأما هذه الهداية فهى أخص من تلك ، والمراد بها إعانتهم وتوفيقهم للسير فى طريق الخير والنجاة مع الدلالة ، وهى لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقل وشرع الدين (١).

ولما كان الإنسان عرضة للخطأ والضلال فى فهم الدين وفى استعمال

١- هذا الفرق بين معنى الهداية معروف فى اللغة وبه يجاب عن التناقض الظاهرى فى قوله تعالى : (إنك لتهدى إلى صراط مستقيم ٤٢ : ٥٢) ، وقوله تعالى : (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ٢٨ : ٥٦) وقوله تعالى : (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ٢ : ٢٧٢) فالهداية التى أثبتها النبى صلى الله عليه وسلم : هى الدلالة على الخير والحق ، والتى نفاها عنه هى الثانية التى بمعنى الإعانة والتوفيق .

الحواس والعقل على ما قدمنا ، كان محتاجا إلى المعونة الخاصة ، فأمرنا الله بطلبها منه في قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ فمعنى « اهدنا الصراط المستقيم » دلنا دلالة تصحبها معونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطأ ، وما كان هذا أول دعاء علمنا الله تعالى إياه ، إلا لأن حاجتنا إليه أشد من حاجتنا إلى كل شيء سواه .

ثم بيّن معنى الصراط (وهو الطريق) واشتقاقه ، وقراءة الصراط بالسين المهملة واشتقاقها على نحو ما في كتب اللغة والتفسير ، ومعنى المستقيم : وهو ضد المعوج ، وقال : ليس المراد بمقابل المستقيم المعوج ذا التموج والتعاريج ، بل المراد : كل مافيه انحراف عن الغاية التي يجب أن ينتهي سالكه إليها . والمستقيم في عرف الهندسة : أقرب موصل بين طرفين ، وهذا المعنى لازم للمعنى اللغوى كما هو ظاهر بالبداهة . وإنما قلنا : إن المراد بمقابل المستقيم كل ما فيه انحراف لأن كل ما يميل وينحرف عن الجادة يكون أضل عن الغاية ممن يسير عليها في خط ذى تعاريج ، لأن هذا الأخير قد يصل إلى الغاية بعد زمن طويل . ولكن الأول لايصل إليها أبداً . بل يزداد عنها بعداً كلما أوغل في السير وانهمك فيه .

وقد قالوا : إن المراد بالصراط المستقيم ، الدين ، أو الحق ، أو العدل ، أو الحدود . ونحن نقول : إنه جملة ما يوصلنا إلى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم .

صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين :*

الصراط المستقيم : هو الطريق الموصل إلى الحق ، ولكنه تعالى ما بينه بذلك كما بينه في نحو سورة العصر وإنما بينه بإضافته إلى من سلك هذا الصراط كما قال في سورة الأنعام : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ وقد قلنا : إن الفاتحة مشتملة على إجمال ما فصّل في القرآن حتى من الأخبار ، التي هي مثل الذكرى والاعتبار ، وينبوع العظة والاستبصار ، وأخبار القرآن كلها تنطوى في

---

* تفسير المنار ص ٥٥ .

إجمال هذه الآية .

المراد بهذا ما جاء فى قوله تعالى : « فبهداهم اقتده » وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من الأمم السالفة . فقد أحال على معلوم أجمله فى الفاتحة وفصله فى سائر القرآن بقدر الحاجة ، فثلاثة أرباع القرآن تقريبا قصص . وتوجيه للأنظار إلى الاعتبار بأحوال الأمم ، فى كفرهم وإيمانهم ، وشقاوتهم وسعادتهم ، ولا شىء يهدى الإنسان كالمثلات والوقائع . فإذا امتثلنا الأمر والإرشاد ، ونظرنا فى أحوال الأمم السالفة، وأسباب علمهم وجهلهم ، وقوتهم وضعفهم ، وعزهم وذلهم ، وبغير ذلك، مما يعرض للأمم – كان لهذا النظر أثر فى نفوسنا يحملنا على حسن الأسوة والاقتداء بأخبار تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمكن فى الأرض ، واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار . ومن هنا ينجلى للعاقل شأن علم التاريخ وما فيه من الفوائد والثمرات ، وتأخذه الدهشة والحيرة إذا سمع أن كثيراً من رجال الدين من أمة هذا كتابها يعادون التاريخ باسم الدين ويرغبون عنه ، ويقولون : إنه لاحاجة إليه ولا فائدة له . وكيف لايدهش ويحار والقرآن ينادى بأن معرفة أحوال الأمم من أهم ما يدعو إليه هذا الدين ؟ ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ١٣ : ٦ ﴾ .

وههنا سؤال وهو : كيف يأمرنا الله تعالى باتباع صراط من تقدمنا وعندنا أحكام وإرشادات لم تكن عندهم ، وبذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم ، وأصلح لزماننا وما بعده ؟ والقرآن يبين لنا الجواب وهو أنه يصرح بأن دين الله فى جميع الأمم واحد ، وإنما تختلف الأحكام بالفروع التى تختلف باختلاف الزمان ، وأما الأصول فلا خلاف فيها . قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ٣ : ٦٤ ﴾ الآية، وقال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبين من بعده ٤ : ١٦٣﴾ الآية . فالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر ، وترك الشر وعمل البر ، والتخلق بالأخلاق الفاضلة مستو فى الجميع . وقد أمرنا الله بالنظر فيما كانوا عليه

والاعتبار بما صاروا إليه : لنقتدى بهم في القيام على أصول الخير . وهو أمر يتضمن الدليل على أن في ذلك الخير والسعادة . على حسب طريقة القرآن في قرن الدليل بالمدلول والعلة بالمعلول ، والجمع بين السبب والمسبب . وتفصيل الأحكام التي هذه كلياتها بالإجمال ، نعرفه من شرعنا وهدى نبينا عليه الصلاة والسلام بتفصيل وإيضاح . »

« وأما وصفه تعالى الذين أنعم عليهم بأنهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فالمختار فيه أن المغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به ، والذين بلغهم شرع الله ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه ، انصرافا عن الدليل ، ورضاء بما ورثوه من القيل ، ووقوفاً عند التقليد ، وعكوفاً على هوى غير رشيد ، وغضب الله يفسرونه بلازمه : وهو العقاب ، ووافقهم الأستاذ الإمام ، والذى ينطبق على مذهب السلف أن يقال : إنه شأن من شئونه تعالى يترتب عليه عقوبته وانتقامه ، وأن الضالين هم الذين لم يعرفوا الحق ألبتة ، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح الذى يقرن به العمل . وقرن المعطوف في قوله « ولا الضالين » بلا لما في « غير » من معنى النفى ، أى وغير الضالين ، ففيه تأكيد للنفى . وهو يدل على أن الطوائف ثلاث : المنعم عليهم ، والمغضوب عليهم ، والضالون . ولا شك أن المغضوب عليهم ضالون أيضاً لأنهم بنبذهم الحق وراء ظهورهم قد استدبروا الغاية واستقبلوا غير وجهتها ، فلا يصلون منها إلى مطلوب ، ولا يهتدون فيها إلى مرغوب ، ولكن فرقا بين من عرف الحق فأعرض عنه على علم ، وبين من لم يظهر له الحق فهو تائه بين الطرق ، لايهتدى إلى الجادة الموصلة منها ؛ وهم من لم تبلغهم الرسالة ، أو بلغتهم على وجه لم يتبين لهم فيه الحق . فهؤلاء هم أحق باسم الضالين ، فإن الضالّ حقيقة : هو التائه الواقع في عماية لايهتدى معها إلى المطلوب ، والعماية في الدين : هى الشبهات التى تلبس الحق بالباطل وتشبه الصواب بالخطأ » (١) .

---

١ - السيد رشيد رضا ، تفسير المنار حتى ص ٥٧ طبعة كتاب الشعب .

بعد هذا العرض الرائع لمعاني آيات الفاتحة من كلام العلامة السيد رشيد رضا نقلا عن الأستاذ الإمام محمد عبده ، يتبين مدى قوة الألفاظ وملاءمتها لتأدية المعاني

وبعد فإن في مراعاة النظير تحقق الجمال الأخاذ في الكلام لما تحتويه من حسن النسق وائتلاف الألفاظ مع المعاني بأخصر عبارة حيث تكون المفردات سهلة المخارج ، يتلألأ عليها رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة وعقادة التركيب ، ويهما يحسن البيان ، فلا يتوقف السامع أو القارىء في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه ، بل يتحدر الكلام بسببها بسهولة فتجد عذوبة السبك ، مع جزالة اللفظ ، وهي سمة عامة لآيات القرآن الكريم ، فلا تجدها في مكان دون آخر أو في آية دون آية بل هي تنسحب على جميع الآيات .

وإنني أرى أن إعجاز القرآن يبدو واضحا في تحقق هذا المعنى الذي ذكرناه ، ولهذا فإن أغلب الوجوه التي عدوها وجوها للإعجاز من حيث ملاءمة الألفاظ وائتلافها ، ومناسبة الألفاظ للمعاني بما يحقق الانسجام ، ينبغي ضمها تحت لواء ما يسمى بمراعاة النظير، وإن روائع النحو والمعاني والبيان إنما تعتمد على تحقق مناسبتها لأغراض الكلام ، وملاءمتها لتأدية المعاني فإذا لم تنل الألفاظ في تراكيبها والمعاني في قوالبها حظوظها من قوة المناسبة وسلامة الملاءمة لم يتحقق فيها معنى مراعاة النظير ولم تصل إلى درجة البلاغة مهما كان اللفظ فصيحا والإحكام النحوي للجملة قويا

ولأجل أن نبين معنى مراعاة النظير في الأسلوب القرآني كمظهر هام من مظاهر الإعجاز فيه تناولنا في هذا البحث العلاقات بين الألفاظ في التركيب ، وكذا بين الألفاظ والمعاني وجعلناها وجوها لما يسمى مراعاة النظير. وهذا هو ما سوف نتناوله بالشرح والتفصيل في الفصل الثاني .

الفصل الثانى

وجوه مراعاة النظير

وفيـــه :

- الوجه الأول من مراعاة النظير: المناسبة - التناسب .
- الوجه الثانى ›› ›› ›› : المؤاخاة .
- الوجه الثالث ›› ›› ›› : الائتلاف .
- الوجه الرابع ›› ›› ›› : حسن النسق .
- الوجه الخامس ›› ›› ›› : الانسجام .
- الوجه السادس ›› ›› ›› : تشابه الاطراف ومراعاة الفواصل .
- الوجه السابع ›› ›› ›› : المشاكلة .
- الوجه الثامن ›› ›› ›› : اللف والنشر .

الوجه الأول من أوجه مراعاة النظير :
- المناسبة - أو (التناسب)

المناسبة في الكلام هي مناسبة وضع الكلمة إلى جوار الكلملة فى نظم متماسك بحيث تتحدر فيه المعانى فى رباط وثيق وبيان محكم ، وهى من أهم وجوه مراعاة النظير الذى عرّفه البلاغيون بأنه الجمع بين أمرين متناسبين بغير التضاد، وذلك يظهر لنا واضحا فى قوله تعالى : ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى (٦) ووجدك ضالا فهدى (٧) ووجدك عائلا فأغنى (٨) فأما اليتيم فلا تقهر(٩) وأما السائل فلا تنهر (١٠) وأما بنعمة ربك فحدّث (١١) ﴾ .

فاليتم يناسبه الإيواء لما فيه من الضم والرعاية حيث نشأ ﷺ يتيما فكفله جده عبد المطلب إلى أن توفى عبد المطلب جده وله من العمر ثمان سنوات فكفله عمه أبو طالب وضمه إليه حتى ابتعثه الله على رأس الأربعين وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به ، والضلال يناسبه الهداية ، وقد قيل إنه ﷺ ضل فى شعاب مكة وهو صغير فرده الله إلى جده وقيل أيضا انه ﷺ ضل وهو مع عمه فى طريق الشام فرده الله إلى عمه ، والعيلة يناسبها الغنى ، والعرب تعرف ذلك قال الشاعر :

وما يدرى الفقير متى غناه . وما يدرى الغنى متى يعيل (١)

أى متى يفتقر .

وهذه المنن الثلاث على الترتيب وصاه الله بثلاث وصايا مقابلها على الترتيب أيضا فقال ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ . والمراد : كن لليتيم كالأب

---

١ - أبو عبيدة : معمر ابن المثنى ، مجاز القرآن ، بتحقيق وتعليق محمد فؤاد سيزكين ، ج ٢ / (٢٨٧) سورة الضحى ، الطبعة الأولى (١٣٨٠ هـ / ١٩٦٢ م) . الناشر محمد سامى أمين الكتبى بمصر .

الرحيم فقد كنت يتيما فآواك الله ، ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ ومعناه : ردّ السائل (الذى هو أشبه بالضال التائه) برفق ولين ، ﴿ وأما بنعمة ربك فحدّث﴾ أى حدّث الناس بفضل الله وإنعامه عليك بعد أن كنت فقيرا فأغناك الله وذلك التحدث بالنعمة شكر لها ، قال الألوسى :

كنت يتيما وضالا وعائلا ، فآواك الله وهداك وأغناك فلا تنس نعمة الله فى هذه الثلاثة ، فتعطّف على اليتيم ، وترحّم على السائل وأرشد العباد إلى طريق الرشاد كما هداك ربك (١).

وكذلك فإن الآية ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾ فى مقابلها ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ والآية : ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ فى مقابلها ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ والآية: ﴿ ووجدك عائلا فأغنى ﴾ فى مقابلها ﴿ وأما بنعمة ربك فحدّث ﴾

ثم لاحظ كذلك مناسبة استخدام الفِعلِ وَجَدَ وما فيه من الرقة والحنو وما [illegible]ن معنى العلم والمعرفة ، يقال : وجدت الحلْم نافعا (٢). أى علمته و[illegible] وفى تكراره ما يدل على مصاحبة العناية الإلهية له ، وتذكيره ﷺ بما كان فى صغره من اليتم والفقر والضياع وفى ذلك تطييب لخاطره ﷺ ليعطف على اليتيم ، ويمسح دمعة البائس المسكين ، ثم ليعرّف الناس بأنعم الله فيشكروه على ما هداهم .

والقرآن الكريم تظهر فيه روعة الانسجام من ملاءمة الكلمات ومناسبتها لبعضها البعض ، بحيث نجد ذلك متحققا فى الآيات فى السور الكبيرة والصغيرة على حد سواء ومن أوله إلى آخره . وإن كان بعض الناس أحسن إحساسا له من بعض ، ويرجع ذلك إلى قدر معرفة الدارس له من اللغة العربية

---

١ - محمد على الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج ٣ ص ٥٧٤ .

٢ - راجع - المعجم الوجيز مادة : وجد .

فكلما كان المرء على قدر كبير من فهم اللغة العربية كلما استبان له جمال نظم القرآن وترتيب كلماته ومناسبة اللفظة إلى جوار اللفظة ، وكلما أدرك سر إعجاز القرآن من هذه الناحية، ناحية المناسبة ، وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد ، ونحن إنما تتبين لنا البراعة فى أكثره ويخفى علينا وجهها فى مواضع ، لقصورنا عن مرتبة العرب السابقين فى سلامة الذوق وجودة القريحة ، وقد قامت الحجة على العالم بالعرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة .

حكى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات (١) * فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ ، ولم يكن يقرأ القرآن . فقال الأعرابى :

إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا ؟!

ومر بهما رجل فقال له الأعرابى : كيف تقرأ هذه الآية ؟

فقال الرجل : « فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم » *

فقال الأعرابى : هكذا ينبغى ، الحكيم لايذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه (٢).

فانظر كيف فطن الأعرابى إلى فساد قراءة الرجل الأول ، وكيف وافق الثانى على قراءته مبيّناً السبب فى مناسبة ختم الآية .

من أجل ذلك نقول إن من أبرز وجوه الإعجاز فى القرآن هى مناسبة

---

١ - سورة البقرة ، الآية ٢٠٩ .

٢ - السيوطى ، الاتقان فى علوم القرآن ج ٣ ص ٣٤٧ .

الألفاظ وتناسب المعانى ومراعاة وضع الكلمة إلى نظيرها والجملة إلى نظيرها والمعنى إلى ما يناسبه .

ولسوف نسوق لبيان ذلك أمثلة من الشعر والنثر العربى ، وآيات القرآن والأحاديث النبوية حتى نبين المناسبة المعنوية واللفظية وما يطلقون عليه أحيانا التناسب .

روى أنه اجتمع نصيب والكميت وذو الرمة ، فأنشد الكميت (١) :

أم هل ظغائن بالعلياء نافعة وإن تكامل فيها الأنس والشنب (٢)

فعقد نصيب عقدة ، فقال له الكميت : ماذا تحصى ؟ قال : خطأك ، فإنك باعدت فى القول ، أين الأنس من الشنب ؟ ألا قلت كما قال ذو الرمـة :

لمياء فى شفتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ وفى اللثات وفى أنيابها شَنَبُ (٣)

(لمياء : سمراء الشفة ، حوة : بنية اللون ، لعس : تميل إلى السمرة ، شنب : الشنب صفاء الأسنان) .

فنصيب أدرك أن الكميت لم يراع التناسب حيث جمع بين أمرين متباعدين ، وأوضح له أن الصواب فى مثل هذا هو بيت ذى الرمة الذى جمع فيه بين الشفتين واللثات والأنياب وهى أمور متناسبة ، وكذلك الحوة واللعس والشنب ... ومن شواهد هذا الفن فى النظم الكريم قوله تعالى : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ (٤) ، حيث جمع الشمس والقمر وهما متناسبان .

---

١ – من كتاب علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع للدكتور / بسيونى عبد الفتاح بسيونى طبعة أولى (١٤٠٨هـ / ١٩٧٨م) . من ص ٢٩ .

٢ – الشنب : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الإنسان .

٣– اللمى : سمرة فى الشفتين . والحوة : حمرة مشوبة بسواد . واللعس سواد مستحب فى الشفة .

٤ – سورة الرحمن آية ٥ .

وقوله عز وجل : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ (١)، فالذهب والفضة نقدان متناسبان ، ومثله قوله تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ (٢)، ﴿ كأنهنّ الياقوت والمرجان ﴾ (٣) فاللؤلؤ والمرجان والياقوت أمور متناسبة لكونها معادن نفيسة مقترنة فى الأذهان. ومن أقوالهم ، قول البحترى يصف إبلا هزيلة :

كالقسى المعطفات بل الأسـ ... ـهم مبريّة بل الأوتار

فقد شبّه تلك الإبل الهزيلة بالقسى فى الرقة والهزال ، ثم أضرب إلى الأسهم وهى أرق ، ثم إلى الأوتار وهى أشد رقة ، وكل من القسى والأسهم والأوتار أدوات متناسبة .

وقول البهاء زهير :

لم يقض زيدكم من وصلكم وطره ... ولا قضى ليله فى هجركم سحره

تركتم خبرى فى الهجر مبتدأ ... وكل معرفة لى فى الهوى نكرة

فقد جمع بين الخبر والمبتدأ والمعرفة والنكرة وهى أمور متناسبة يدرك التناسب بينها من ألم بمسائل علم النحو ويمكن أن يضاف إلى هذه الأمور « زيد » . الذى كثر الاستشهاد به وتردده فى علم النحو ...

فإذا لم يراع المتكلم الجمع فى كلامه بين الأمور المتناسبة عد ذلك عيبا وخطأ ، كما رأينا فى قول الكميت السابق ... وكما فى قول أبى نواس(٤) :

وقد حلفت يمينا ... مبرورة لا تكذب

برب زمزم والحو ... ض والصفا والمحصب

---

١ - سورة التوبة آية ٣٤ .
٢ - سورة الرحمن آية ٢٣ .
٣ - سورة الرحمن آية ٥٨ .
٤ - المصدر السابق من كتاب علم البديع ص ٣٠ .

فإن الحوض لا يتناسب مع زمزم والصفا والمحصب ، وإنما يذكر الحوض مع الصراط والميزان وما يجرى مجراهما مما هو منوط بيوم القيامة ، أما زمزم والصفا والمحصب ، فتذكر مع الركن والحطيم وما يجرى مجراهما .. هذا وقد يلحق الشاعر بالأمور المتناسبة أمراً لا يتلاءم معها فى الحقيقة والواقع ، وإنما يتلاءم معها فى الخيال والتصور ، وهو يهدف من وراء ذلك إلى غرض بلاغى كالمبالغة فى المديح وغيره من المعانى .

وانظر إلى قول محمد بن وهيب (١) :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها

شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

تجده قد جمع بين الشمس والقمر ولا يخفى عليك ما بينهما من تناسب ، أما أبو إسحاق فلا يتناسب معهما فى الواقع وإنما يتناسب معهما فى خيال الشاعر الذى سوى بينه وبينهما فى الإشراق والبهجة .. وكذا قد يجمع الشاعر بين عدة أمور لا تتناسب فى الحقيقة والواقع ، وإنما تتناسب فى خياله، ويتحقق من وراء الجمع بينها مقصد من المقاصد ... من ذلك قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء فى الخلق مطمع　　　فذو التاج والسقاء والذر واحد

فمن ذا الذى يجمع بين الملك صاحب التاج والسلطان وبين من يقوم بسقاية الناس . ومن ذا يسوى بينهما وبين الذر ، إنها أمور لا تتناسب فى الواقع ، ولكن خيال الشاعر سوى بينها ، فالجمع بين الثلاثة من صنع الخيال المحض ، الذى أبرز أن من لا مطمع له فى الدنيا وأهلها يتساوى عنده الملك ذو السلطان والسقاء والذر (٢) .

---

١ - المصدر السابق ص ٣١ .

٢ - د. بسيونى عبد الفتاح بسيونى ، علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، جامعة الأزهر - كلية اللغة العربية بالقاهرة طبعة أولى (١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م) .

يقول ابن أبى الإصبع المصرى (٥٨٥ - ٦٥٤) فى باب المناسبة: *

هى على ضربين : مناسبة فى المعانى ، ومناسبة فى الألفاظ ، فالمعنوية هى أن يبتدىء المتكلم بمعنى ، ثم يتمم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ ، والفرق بين هذا الضرب وبين الملاءمة أن الملاءمة تكون فى مفردات الألفاظ ومعانيها .

المناسبة المعنوية : وهذا الضرب من المناسبة بين الجمل المركبة ومعانيها، ومن أمثلته قوله تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير (١) ﴾ ، فإن معنى نفى إدراك الأبصار للشىء يناسب اللطف، وهذا الكلام خرج مخرج التمثيل ، لأن المعهود عند المخاطب أن البصر لايدرك الأجسام اللطيفة، كالهواء وسائر العناصر ، ولا الجواهر المفردة ، وإنما يدرك اللون من كل متلوّن ، والكون من كل متكوّن ، فجاء هذا التمثيل ليتخيله السامع فيقيس به الغائب على الشاهد ؛ وكذلك قوله تعالى : ﴿ وهو يدرك الابصار﴾، فإن ذلك يناسبه وصف المدرك بالخبرة ؛ فإنه سبحانه لما أثبت له إدراك الأبصـــار : أى ألباب الأبصار التى نفَـى عنها إدراكـه تكميلا للتمدح (٢) حسب ما اقتضته البلاغة من تصحيح معنى التمدّح ، واحتراسا ممّن يظن أنه إذا لم يكن مدركا لم يكون موجوداً ، فوجب أن تقول : ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ ، لتثبت لذاته الوجود وزيادة ، ثم عطف على الأول والثانى ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ : ليناسب معنى آخر الكلام أوله ، وعجزه صدره

---

* انظر كتاب بديع القرآن لابن أبى الاصبع المصرى بتحقيق د. حفنى محمد شرف – نهضة مصر – القاهرة .

– وانظر ايضا كتاب : تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن – لابن أبى الإصبع المصرى – بتحقيق د. حفنى محمد شرف من ص ٣٦٣ الى ص ٢٧١ .

١ – سورة الأنعام آية ١٠٣ .

٢ – كذا فى الأصل أ ، ب . والذى فى د ، س ، ت « للمدح » وهو أظهر .

ورجّح لفظة الخبير على لفظة البصير لما فيها من الزيادة على الإبصار والإدراك، إذ ما كل من أبصر شيئا ، أو أدركه كان خبيراً به ، فتضمنت على ذلك الفاصلة معنى زائداً على معنى الكلام وصفت لأجله بالإيغال ، وهو إيغال متمم لمعنى التمدّح . فحصل فى هذه الآية على ذلك اثنا عشر ضرباً من البديع وهى : التعطّف الذى هو قوله : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ لمجيء لفظة « الأبصار » فى أول الكلام وآخره ؛ والمقارنة ، لاقترانه بالمطابقة فى قوله : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ والإدماج لما أدمج فى التعطف من الاحتراس الذى شرحناه ؛ والمناسبة التى هى أم الباب؛ والترشيح بالمناسبة إلى الإيغال ؛ والإيغال الذى بينّاه ؛ والإشارة لدلالة اللفظ القليل على المعانى الكثيرة ؛ والمجاز لحذف المضاف من قوله : وهو يدرك الأبصار ، أى ذوى الأبصار لتقرب ألفاظ التعطف بعضها من بعض ، فيكون ذلك أحسن وأبين ؛ والتخبير للعدول فى الفاصلة عن البصير ، والمدرك إلى الخبير ؛ والإيجاز فإن هذه الآية تسع لفظات تضمنت اثنتى عشر ضربا من البلاغة (١) .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون (٢) ﴾ فإنه سبحانه لمّا أسند جعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة لنفسه ، وهو القادر الذى جعل الشيء ، لايقدر غيره على مضادّته ولا لغيره قال فى فاصلة الآية : « أفلا تسمعون » لمناسبة السماع للظرف

---

١ - عدّ منها المؤلف عشرة وبقى اثنتان هما المقابلة والمساواة . والمقابلة هى الطباق ، أما المساواة فلأن اللفظ فى الآية لاينفضل عن معناه ولا يقصر عنه .

٢ - سورة القصص آيتا ٧١ - ٧٢ .

المظلم من جهة صلاحية الليل للسماع دون الإبصار ، لعدم نفوذ البصر فى الظلمة، ولما أسند جعل النهار سرمدا إلى يوم القيامة لنفسه ، كان الوجود كأن لم يخلق فيه ليل البتّة ، قال فى فاصلة هذه الآية : « أفلا تبصرون » لمناسبة ما بين النهار والإبصار، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون . أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز لتخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون (١) ﴾ ، فانظر إلى قوله تعالى فى صدر الآية التى الموعظة فيها سمعيّة لكونهم لم ينظروا القرون الهالكة ، وإنما سمعوا بها ﴿ أو لم يهد لهم ﴾ لم يقل كما قال فى التى بعدها : ﴿ أو لم يروا ﴾ وقال تعالى بعد الموعظة السمعية : « أفلا يسمعون » وبعد الموعظة المرئية « أفلا يبصرون » لأن الزرع مرئىّ لا مسموع ليناسب آخر كل كلام أوله . ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً (١) ﴾ ، فإن الكلام لو اقتصر فيه على دون الفاصلة لأوهم ذلك بعض الضعفاء أن هذا الإخبار موافق لاعتقاد الكفار فى أن الريح التى حدثت كانت سببا فى رجوعهم خائبين ، وكفى المؤمنين قتالهم، والريح إنما حدثت اتفاقا كما تحدث فى بعض وقائعهم ، وقتال بعضهم لبعض ، وظنّوا أن ذلك لم يكن من عند الله ، فوقع الاحتراس بمجىء الفاصلة التى أخبر فيها سبحانه أنه قوى عزيز ، قادر بقوته على كل شىء، ممتنع لعزته من كل شىء ، قاهر لكل شىء ، ليثبّت المؤمنين على اعتقادهم أنه موصوف بهذه الصفات ، وأن حزبه عز وجل هو الغالب، وأنه سبحانه لقدرته ينوّع للمؤمنين النصر ليزيدهم إيمانا وتثبيتا ، فينصرهم مرة بالقتال كيوم بدر وأمثاله ، وطورا بالريح كيوم الأحزاب ، وتارة بالرعب ،

---

١ - سورة السجدة آيتا ٢٦ ، ٢٧ .

٢ - سورة الأحزاب آية ٢٥ .

كبنى النضير ، وآونة ينصر عليهم أولا ، ويجعل العاقبة لهم آخرا كيوم أحد ، وحينا يريهم أن الكثرة لاتغنى شيئا ، وأنه ينصر مع القلة ليتحققوا أن النصر من عند الله كيوم حنين ، ليتيقنوا أنه سبحانه يأتى بالشدة ابتلاء ، ويعقبها بالفرج تفضلا وإحسانا ، وأن الخير والشر من عنده ، وأن لافاعل فى الحقيقة سواه ، لأنه خالق كل شىء ، ومقدّر كل شىء .

ومن هذا الضرب أيضا قوله تعالى : ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم [١] ﴾ ، فانظر إلى [٢] مناسبة ما بين الفاصلة وما تقدمها ، حيث أخبر بأنهم لايخرجون من النار ، وأخبر بأن لهم عذابا مقيما لما يقتضى الخلود الدائم من المقام فى العذاب ؛ وكذلك قوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم [٣] ﴾ . فإن عزته وحكمته قضتا بقطع السارق ؛ لأن من عزّ حكم ، ومن ثبت تنزيهه عن سمات النقص والظلم ثبت عدله ، ومن عدله قطع السارق لما فى قطعه من صيانة الأموال . وذلك مقتضى الحكمة ، فهذه أمثلة المناسبة المعنوية .

ومن أمثلة المناسبة المعنوية فى الشعر قول المتنبى (طويل) : *

على سابح موج المنايا بنحره

غداة كأن النبل فى صدره وبْلُ

فإن بين لفظة السباحة ، ولفظة الموج ، ولفظة الوبل تناسباً معنويا صار البيت به متلاحما شديد ملاءمة الألفاظ ، وأحسن منه قول ابن رشيق القيروانى (طويل) :

---

١ - سورة الآية .

٢ -

٣ - سورة الآية .

* كتاب تحرير التحبير لابن أبى الاصبع المصرى ص ٣٦٥ .

أصحّ وأقوى ما رويناه فى النـدى ... من الخبر المأثــور منذ قديـم(١)
أحاديث ترويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن جود الأمير تميم

وهذا أحسن شعر سمعته فى المناسبة المعنوية . لأنه ناسب فيه بين الصحة والقوة ، والرواية ، والخبر المأثور ، والقدم مناسبة معنوية إذ هذه الألفاظ يناسب بعضها بعضا ، وكذلك ناسب فى البيت الثانى بين الأحاديث والرواية والعنعنة مناسبة معنوية أيضاً . وأحسن من المناسبة الواقعة فى البيت الأول ما وقع فى البيت الثانى من صحة ترتيبة العنعنة حيث أتى بها صاغرا عن كابر ، وآخرا عن أول ، كما يقع سند الأحاديث ، لأن السيول فرع ، والحيا أصله ، ولذلك جعلها تروى عن الحيا إذ هى بمنزلة الولد . وهو بمنزلة الوالد . وكذلك الحيا فرع . والبحر أصله ، ولذلك جعل الحيا يروى عن البحر ، إذ الحيا بمثابة الولد والبحر بمثابة الوالد ، ثم نزل البحر بمنزلة الولد وجود الممدوح بمنزلة الوالد له لقصد المبالغة فى المدح ، ولذلك جعل البحر راويا عن جود الممدوح ، وهذا الذى تقتضيه الصناعة من الأدب مع الممدوح وحسن المبالغة فى وصف جوده وفى الناس من سمّى المناسبة المعنوية ملاءمة، إلا قدامة (٢) فإنه جعل الملاءمة ائتلاف ألفاظ الكلام بالمعنى الذى المتكلم آخذ فيه ، وقصده بذلك أن يقال فى لفظة من ألفاظ المعنى : لو كان موضع هذه غيرها لكان الكلام مؤتلفاً بمعانيه وألفاظه ملائمة له وما ذكرته من المناسبة فيه زيادة على هذا المقدار ، إذ غيرها من الألفاظ يوفى بما قاله الناس فى تفسير الائتلاف ، ويزيد عليه زيادة معلومة عند أرباب النقد) (٣) .

وأما المناسبة اللفظية : فهى توخّى الإتيان بكلمات متزنات ، وهى

---

١ — البيتان فى الطراز ٣ : ١٤٧ والايضاح ٦ : ٢٢ ونهاية الأرب ٧ : ١٥٨ .

٢ — يعنى قدامة بن جعفر .

٣ — كتاب تحرير التحبير لابن أبى الأصبع ص ٣٦٦ .

على ضربين : تامة وغير تامة ، فالتامة أن تكون الكلمات مع الاتزان مقفاة وأخرى ليست بمقفاه فالتقفية غير لازمة للمناسبة .

ومن شواهد المناسبة التي ليست بتامة في الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب (١) ﴾ ومن شواهد التامة في السنّة قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - مما كان يرقى به الحسنين عليهما السلام « أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لامة » ولم يقل ملمّة ، وهى القياس ، لمكان المناسبة اللفظية التامة ؛ ومثله قوله - عليه السلام - « ارجعن مأزورات غير مأجورات » (٢) .

والمستعمل موزورات ، لأنه من الوزر غير مهموز فلفظ به النبىّ - صلى الله عليه وسلم - مهموزاً لمكان المناسبة اللفظية التامة ، وهذامن الفصاحة العجيبة .

وأما ما جاء من السنّة من أمثلة المناسبة الناقصة ، فكقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إن أحبّكم إلىّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافا (٣) » فناسب - ﷺ - بين أخلاق وأكناف مناسبة اتزان دون تقفية . ومما جمع بين المناسبتين قوله ﷺ في بعض دعائه : « اللهم إنى أسألك رحمة تهدى بها قلبى . وتجمع بها أمرى وتلمّ بها شعثى ، وتصلح بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وتزكى بها عملى ، وتلهمنى بها رشدى ، وترد بها ألفتى ، وتعصمنى بها من كل سوء ؛ اللهم إنى أسألك الفوز في القضاء ونزل الشهداء ، وعيش السعداء والنصر على الأعداء (٤) »

---

١ ، ٢ - كتاب تحرير التحبير لابن أبى الاصبع ص ٣٦٨ .

٣ - الموطأ الاكناف : الرجل الدمث الأخلاق السهل الكريم .

٤ - نهاية الأرب ٧ : ١٥٩ .

فناسب ﷺ بين قلبى وأمرى ، وغائبى وشاهدى . مناسبة غير تامة بالزّنة دون التقفية . ثم ناسب بين القضاء والشهداء والسعداء والأعدا مناسبة تامة بالزنة والتقفية ، ومن أمثلة المناسبتين الناقصة والتامة الشعرية قول أبى تمام (طويل) :

مَهَا الوَحْش ، إلا أن هاتا أوانسٌ

قنا الخط ، إلاّ أنّ تلك ذَوَابِلٌ (١)

فناسب حبيب بين مها وقنا مناسبة تامة ، وبين الوحش والخط وأوانس وذوابل مناسبة غير تامة ، وهذا البيت من أفضل بيوت المناسبة لما انضم إليها فيه من المحاسن ، فإن فيه مع المناسبتين التشبيه بغير أداة والمساواة ، والاستثناء ، والطباق اللفظى ، وائتلاف اللفظ مع المعنى والتمكين ، فأما المناسبة فقد ذكرناها ، وأما التشبيه ففى قوله : مها وقنا ، فإن التقدير كمها وقنا ، فحذف الأداة ليدل على قرب المشبّه من المشبّه به ، وأما الاستثناء البديعى ففى قوله : « إلا أنهاتا أوانس » وقوله : « إلا أن تلك ذوابل » ليثبت للموصوفات التأنيس والتحبّب ، وينفى عنهن النفار والتوحّش ، وكذلك فعل فى الاستثناء الثانى ، فإنه أثبت به لهنّ اللين واللدونة ؛ ونفى عنهن اليبس والصلابة ، فأثبت لهن بالاستثناء من الصفات ما يستحسن ، ونفى عنهن ما يستهجن ، وأما المطابقة ففى قوله الوحش والأوانس ، وهاتا وتلك فإن هاتا للقريب ، وتلك للبعيد ، وأما المساواة فلأن لفظ البيت لايفضل عن معناه ، ولا يقصر عنه ، وأما الائتلاف فلكون ألفاظه من واد واحد متوسطة بين الغرابة والاستعمال (٢) . وكل لفظة منها لائقة بمعناها ، لاتكاد يصلح موضعها غيرها ، وأما التمكين

---

١ - ديوانه . ١٥٦ والوساطة ٤٥ ونهاية الأرب ٧ : ١٦٠ . والمها : بقر الوحش . والقنا : الرماح والخطية نسبة إلى الخط وهو سيف البحر وعمان ، وتنسب اليهما الرماح .

٢ - كتاب تحرير التحبير المصدر السابق ص ٣٦٩ .

فلأن قافية البيت مستقرة فى موضعها ، غير نافرة من محلها ، من غير أن يتقدمها شيء من لفظها يدل عليها ، كما يقع فى التوضيح والتصدير (وقد غلط الآمدىّ فى تغليط أبى نمام فى هذا البيت . حيث زعم أنه نفى عن النساء لين القدود ، معتقداً أن الرماح سميت ذوابل للينها . والمعروف عند أهل اللسان ضد ذلك ، لأن العرب تقول رمح ذابل إذا كان صلب الكعوب، ومن ذلك قولهم ذبلت شفتاه إذا يبستا . ولا تعرف العرب الذابل إلا اليابس الذى جفت رطوبته ، ومن ذلك قولهم : نوارة ذابلة إذا جف ماؤها وأخذت فى اليبس ، وأبو تمام لايشك أحد أنه أبصر من الآمدى باللغة . وأقعر منه (١) بمعرفة اللسان العربى ، ويقرب من هذا البيت قول البحترى (٢) (طويل) :

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا وأقدم لما لم يجد عنك مهربا

فناسب بين أحجم وأقدم مناسبة تامة ، وكذلك بين قوله : فيك وعنك ، ومطمعاً ومهرباً . إلا أن مناسبة هاتين النجملتين غير تامة ، وقد حصل فى هذا اللفظ أيضا المطابقة فى أحجم وأقدم . والمساواة والائتلاف والتمكين . فقد استوى هو وبيت أبى تمام فيما ذكرنا وزاد عليه بيت أبى تمام بالتشبيه والاستثناء . ففضل بيت أبى تمام بالمعانى ، وفضل بيت البحترى بالألفاظ . لأن ألفاظه أكثر استعمالا وأعذب مذاقاً ، وللمناسبة التامة فيه نصاعة وظهور أكثر من المناسبة التى فى بيت أبى نمام . وإذا قست ما بين البيتين بما قدّمت من كلام الرسول - صلى الله عليه وسلم - سقطا دون كل جملة منه ، إذ كل جملة منه يلى بعضها بعضا ، ومفردات الألفاظ تسير إلى معانى شتّى ، وإلا فانظر إلى قوله ﷺ تهدى بها قلبى ، وما يحصل بها من منافع الدنيا والآخرة ، ويتوقى من مضار الدنيا والآخرة بهدية القلب . وإلى قوله « وتجمع

---

١ - أقعر منه ، يعنى أكثر تعسفا منه فى معرفة اللسان العربى .

٢ - ديوانه ١ :٥٦ والإيضاح ٦ : ١١٤

أمرى ؛ وما يكون من اجتماع الأمر من عدم التذبذب فى كل شىء وحصول التثبت وإلى قوله ﷺ : وتصلح بها غائبى ، وتشير هذه الجملة إليه من إصلاح الباطن ، وما يكون فى ذلك من الاخلاص ، وكذلك قوله : وتدفع بها شاهدى ، فإن من أصلح الله سبحانه باطنه أصلح الله تعالى ظاهره، وما وقع فى ضمن هاتين الجملتين مع المناسبة من المطابقة بين غائبى وشاهدى ، وبذلك فاعتبر بقية الدعاء ؛ وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « الفوز بالقضاء » فإنه رب قضاء نزل بغير صابر محتسب ، فأوبقه [١] وقلّ من يفوز عند نزول القضاء » وكذلك قوله : ونزل الشهداء ، أى قراهم أو منزلتهم ، وهى أرفع المنازل ، وما أعد لهم ، ومثله قوله : وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ؛ فالحظ بدقيق النظر ما اشتملت عليه الألفاظ من المعانى تجدها لاتدخل تحت الإحصاء إلى سلامةهذا النظم وعذوبة هذا اللفظ وعلوّه مع كونه مستعملا معروفاً ، وفصاحته على كونه متداولا مألوفاً ، ووضوح معانيه ، وحسن البيان فيه ، بحيث لايفتقر أحد إلى السؤال عن لفظ فيه قد استوى فى فهمه الذكىّ والبليد والقريب من العلم والبعيد ، وما فيه من الديباجة التى لا توفى العبارة بها ، ولا يقدر البليغ على أن يصفها ؛ وهذا أمر يدركه كلّ ذى ذوق سليم ، وذهن مستقيم ، والله أعلم .

وقد تناول موضوع المناسبة بعض العلماء تحت مسمى التناسب أو التشابه وكلها تفيد المعنى نفسه وفيما يلى شرح ذلك : .

---

١ - أوبقه : أهلكه .

التناسب *. ويسمى التشابه أيضا **

وهو ترتيب المعانى المتآخية التى تتلاءم ولا تتنافر (١). والقرآن العظيم كله متناسب لا تنافر فيه ولا تباين .. ومنه قول النابغة .

الرفق يمن والأناة سعـــادة   فاستأن فى رفق تلاق نجاحا (٢)
واليأس عما فات يعْقِبُ راحةً   ولربَّ مطعمةٍ تعود ذُباحـــاً (٣)

(*) من كتاب مقدمة تفسير بن النقيب فى علم البيان والمعانى والبديع للامام جمال الدين محمد ابن سليمان النقيب المتوفى عام ٦٨٨ تحقيق د. زكريا سعيد على ص ٢١٣ .

(**) « التناسب » تسمية الزنجانى فى المعيار : ٨٦ ، قال : « ويسمى التشابه أيضا . وعقد ابن الأثير بابا سمّاه « التناسب بين المعانى » وهو النوع الرابع والعشرون من مقالته الثانية فى الصناعة المعنوية (المثل السائر : ٣ / ١٤٢) ، وتحدث فى ثنايا ذلك عما أسماه « المؤاخاه بين المعانى والمؤاخاة بين المبانى » (المثل السائر : ٣ / ١٥٣ – ١٥٩) .وسمّى ابن أبى الإصبع هذا الفن « المناسبة » وقسّمها إلى لفظية ومعنوية (تحرير التحبير : ٩٢، وبديع القرآن : ١٤٥) . وذكر السيوطى أن هذا الفن يسمى أيضا ، مراعاة النظير ، والتوفيق ، والائتلاف ، والمؤاخاة » ، وجعله أقساما ثلاثة : أن يناسب اللفظ المعنى الثانى : أن يناسب اللفظ اللفظ . الثالث : أن يناسب المعنى المعنى (عقود الجمان ١٠٨ ، ١٠٩) وهو متابع فى هذا الطيبى فى التبيان : ٣٤٩ .

١ – هذا تعريف الزنجانى فى المعيار : ٨٦ . ومن هنا وحتى بيت الشعر : (وبعض قريض القوم) منقول عن الزنجانى لم يزد فيه ابن النقيب سوى قوله (والقرآن العظيم كله متناسب لا تنافر فيه ولا تباين) .

٢ ، ٣ – البيتان فى ديوان النابغة : ٢٠٠ (تحقيق أبو الفضل) . والمعيار : ٨٦ – ٨٧ . ورواية عجز البيت الثانى فى ديوان النابغة (بشرح الشيخ ابن عاشور : ٢٢٨) .

ولربَّ مطعمة تكون ذباحا

وعلّق عليها الشيخ بقوله : (مطمعه) بميم بعد الطاء كما رُسم فى نسخة عتيقة موسومة بالصحة من شرح أبى جعفر على الديوان . أى حالة مطمعة أى تطمع من يحسبها نافعة له فتكون داءٍ (ذباحا) بضم الذال المعجمة وتخفيف الموحدة : وهو وجع الحلق ووقع فى كتاب شعراء النصرانية (مطعمة) بتقديم العين على الميم وهو تحريف . انتهى كلام الشيخ بن عاشور.

ويسمى التشابه أيضا .. وقيل التشابه أن تكون الألفاظ غير متباينة ولكن متقاربة فى الجزالة والمتانة والدقة والسلاسة وتكون المعانى مناسبة لألفاظها من غير أن يكسى اللفظ الشريف المعنى السخيف أو على الضد بل يصاغان معاً صياغة تتناسب وتتلاءم حتى لا يكون الكلام كما قيل :

وبعض قريض القوم أولاد علة   يكد لسان الناطق المتحفظ (١)

قال المصنف عفا الله عنه (٢) : المناسبة عند أرباب هذا الشأن على قسمين معنوية ولفظية . فالمعنوية : أن يبتدىء المتكلم بمعنى ثم يتمم كلامه بما يناسبه فى المعنى دون اللفظ . ومنه قوله تعالى ﴿ وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً (٣) ﴾ ، أخبر سبحانه فى فاصلة الآية بأنه قوى عزيز ليدل على أن تلك الريح التى أصابت المشركين ليست اتفاقا وليست هى من أنواع السحر بل هى من إرساله على أعدائه كعادته وسنته فى أمثاله من نصره لعباده المؤمنين مرة بالقتال كيوم بدر ومرة بالريح كيوم الأحزاب ومرة بالرعب كبنى النضير وأن النصر من عند الله لا من عند غيره ولهذا لم ينصرهم حين خالفوا نبيهم يوم أحد

١ - من انشاد خلف الاحمر فى البيان والتبيين : ١ / ٦٦ .

وأولاد العلة : بفتح العين : أولاد الرجل الواحد من أمهات شتى . وعلق على البيت الجاحظ بقوله : (يقول : إذا كان الشعر مستكرهاً وكانت ألفاظ البيت من الشعر لايقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات ، وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضياً موافقاً كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة) البيان والتبيين : ١ / ٦٦ .

٢ - ما ساقه المصنف - هنا - وحتى آخر هذا القسم منقول عن ابن أبى الإصبع إلا أمثلة معدودة . وقسمة المناسبة إلى لفظية ومعنوية هى قسمته انظر : (تحرير التحبير : ٣٦٨ - ٣٧١ ، وبديع القرآن : ١٤٥ - ١٥٠) .

٢ - سورة الأحزاب : الآية ٢٥ .

وحين أعجبتهم كثرتهم يوم حنين وبعد ذلك كانت العاقبة لهم .

في التناسب بين المعانى والألفاظ

ذكرنا أن بعض البلاغيين عرّفوا مراعاة النظير بأنه الجمع بين أمرين متناسبين بغير التضاد ، وقد تبين لنا ذلك من خلال ما تم سرده من الأمثلة المتنوعة ، وقد مرّ بنا أن التناسب هو ترتيب المعانى المتآخية التى تتلاءم ولا تتنافر . وسوف نتناول الآن التناسب من جانب المطابقة .

قال ابن الأثير : (١)

« أجمع أرباب هذه الصناعة على أن المطابقة فى الكلام هى الجمع بين الشىء وضده ، كالسواد والبياض والليل والنهار ، وخالفهم فى ذلك قدامة بن جعفر الكاتب ، فقال : المطابقة إيراد لفظين متساويين فى البناء والصيغة مختلفين فى المعنى . وهذا الذى ذكره هو التجنيس بعينه .

ولننظر نحن فى ذلك وهو أن نكشف عن أصل المطابقة فى وضع اللغة، وقد وجدنا الطباق فى اللغة من طابق البعير فى سيره إذا وضع رجله موضع يده، وهذا يؤيد ما ذكره قدامة ، لأن اليد غير الرجل لاضدّها ، والموضع الذى يقعان فيه واحد ، وكذلك المعنيان يكونان مختلفين واللفظ الذى يجمعهما واحد ، فقدامة سمى هذا النوع من الكلام مطابقا حيث كان الاسم مشتقا مما سمّى به ، وذلك مناسب ووقع فى موقعه ، إلا أنه جعل للتجنيس اسما آخر وهو المطابقة ، ولا بأس به إلا إن كان مثله بالضدين كالسواد والبياض ، فإنه يكون قد خالف الأصل الذى أصّله بالمثال الذى مثله.

---

١ - انظر كتاب : المثل السائر لضياء الدين بن الأثير قدمه وعلق عليه د. احمد الحوفى ، د. بدوى طبانة - دار نهضة مصر - الفجالة - القاهرة ص ١٤٣ .

وأما غيره من أرباب هذه الصناعة فإنهم سموا هذا الضرب من الكلام مطابقة لغير اشتقاق ولا مناسبة بينه وبين مسمّاه ، هذا الظاهر لنا من هذا القول ، إلا أن يكونوا قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم نعلمها نحن .

ولنرجع إلى ذكر القسم من التأليف وإيضاح حقيقته فنقول : الأليق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع المقابلة ، لأنه لايخلو الحال فيه من وجهين، إما أن يقابل الشيء بضده ، أو يقابل لما ليس بضده ، وليس لنا وجه ثالث .

« فأما الأول وهو مقابلة الشيء بضده كالسواد والبياض وما جرى مجراهما فإنه ينقسم قسمين : أحدهما مقابلة في اللفظ والمعنى ، والآخر مقابلة في المعنى دون اللفظ » (١) .

(المقابلة في اللفظ والمعنى) :

أما المقابلة في اللفظ والمعنى فكقوله تعالى ﴿ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً (٢) ﴾ فقابل بين الضحك والبكاء والقليل والكثير .

وكذلك قولـــه تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتـاكم (٣) ﴾ وهذا أحسن ما يجيء في هذا الباب .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير المال عين ساهرة لعين نائمة .

ومن الحسن المطبوع الذى ليس بمتكلف قول عَلِيّ رضى الله عنه

---

١ – المصدر السابق ص ١٤٤ .

٢ – سورة التوبة : آية ٨٢ .

٣ – سورة الحديد : آية ٢٣ .

لعثمان رضي الله عنه : « إن الحق ثقيل مرئٌ والباطل خفيف وبيٌ وأنت رجل إن صدقْتَ سَخطْتَ ، وإن كَذبتَ رضيت » فقابل الحق بالباطل ، والثقيل المرئَ بالخفيفَ الوبي ، والصدق بالكذب ، والسخط بالرضا ، وهذه خمس مقابلات في هذه الكلمات القصار .

وكذلك ورد قوله رضي الله عنه لما قال الخوارج لاحكم إلا لله تعالى : « هذه كلمة حق أريد بها باطل » . وقال الحجاج بن يوسف لسعيد بن جبير رضي الله عنه وقد أحضره بين يديه ليقتله ، فقال له ما اسمك ؟ قال سعيد ابن جبير ؟ قال ، بل أنت شقيٌ بن كُسَيْر . وقد كان الحجاج من الفصحاء المعدودين ، وفي كلامه هذا مطابقة حسنة ، فإنه نقل الإسمين إلى ضدهما، فقال في سعيد شقي وفي جبير كسير .

وهذا النوع من الكلام لم تختص به اللغة العربية دون غيرها من اللغات. ربما وجدته في لغة الفرس أنه لما مات قباذ أحد ملوكهم قال وزيره : « حرّكنا بسكونه » .

وأول كتاب الفصول لأبقراط في الطب قوله : « العمر قصير والصناعة طويلة » وهذا الكتاب على لغة اليونان .» (١)

ومن كلامي في هذا الباب ما كتبته في صدر مكتوب إلى بعض الإخوان وهو : « صدر هذا الكتاب عن قلب مقيم ، وجسد سائر ، وصبر مليم ، وجزع عاذر ، وخاطرا دهشته لوعة الفراق فليس بخاطر » .

وكذلك كتبت إلى بعض الإخوان أيضا فقلت : « صدر هذا الكتاب عن قلب مأنوس بلقائه، وطرف مستوحش لفراقه ، فهذا مروّع بكآبة إظلامه،

---

١ - المثل السائر لابن الأثير ص ١٤٥ .

وهذا ممتع ببهجة إشراقه ، غير أن لقاء القلوب لقاء عُنيَت بمثله خواطر الأفكار ، وتتناجى به وراء الأستار ، وذلك أخو الطيف الملّم فى المنام ، الذى يموّه بلقاء الأرواح على لقاء الأجسام » .

ومن هذا النوع ما ذكرته فى كتاب أصف المسير من دمشق إلى الموصل عن طريق المناظر فقلت فى جملته : « ثم نزلت أرض الخابور فغَرّبت الأرواح وشرّفت الجسوم ، وحصل الإعدام من المسار والإنزال من الهموم ، وطالبتنى النفس بالعود والقدرة مفلسة ، وأويت إلى ظل الآمال والآمال مشمسة » .

ومن ذلك ما ذكرته فى جملة كتاب إلى بعض الإخوان وعَرّضت فيه بذكر جماعة من أهل الأدب فقلت : « وهم مسئولون ألا ينسونى فى نادى فضلهم الذى هو منبع الآمال وملتقط الآل ، فوجوه ألفاظه مشرقة بأيدى الأقلام المتسودة ، وقلوب معانيه مستنبطة بنار الخواطر المتوقدة ، والواعل إليه يَسْكَر من خمرته التى تنبه العقول من إغفائها ، ولا يشعر بها أحد غير أكفائها » وهذه الفصول المذكورة لاخفاء بما تضمنته من محاسن المقابلة .

ومما ورد من هذا النوع شعراً قول جرير :

وأعور من نبهان أما نهاره فأعمى وأما ليله فبَصير (١)

وكذلك ورد قول الفرزدق :

قَبّح الإله بنى كليب إنهم لايَغْدُرون وَلا يَفُون لجار

يستيقظون إلى نهيق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار (٢)

١- من قصيدته فى هجاء أعور نبهان (الديوان ٢٦٤) يريد أنه فى النهار أعمى عن الخيرات ، وفى الليل بصير بالسيئات .

٢ - ديوان الفرزدق ٢ / ٤٤٨ فى هجائه لجرير من قصيدة مطلعها :

يابن المراغة إنما جاريتنى بمسبقين لدى الفعال قصار

فقابل بين الغدر والوفاء ، وبين التيقظ والنوم ، وفي البيت الأول معنى يسأل عنه .

وكذلك ورد قول بعضهم :

فلا الجودُ يُفْنِي المالَ والجَدُّ مُقْبِلٌ ولا البخلُ يُبْقِي المالَ والجد مُدْبِرٌ

وقد أكثر أبو تمام من هذا في شعره فأحسن في موضع وأساء في موضع ، فمن إحسانه قوله :

ما إن ترى الأحسابَ بِيضاً وُضَّحا إلا بحيث ترى المنايا سودا

وكذلك قال من هذه القصيدة أيضا :

شرفٌ على أُولَى الزمان وإنما خَلَقُ المناسِبِ أَنْ يكون جديدا (١)

وعلى هذا المنهج ورد قوله :

إذا كانت النُّعمى سَلوبا من امرىء غدت من خليجَيْ كفِّه وهي مُتْبِعُ

وإن عَثَرَتْ سود الليالي وبيضها بوَحْدَتِه أَلفيْتَها وهي مَجْمَعُ

ويومٍ يظل العزُّ يُحْفَظُ وَسْطه بسمر العوالي والنفوس تُضَيَّعُ

مصيف من الهيجا ومن جاحم الوغى ولكنه من وابل الدم مَرْبَعُ (٢)

ومن هذا الأسلوب قوله أيضا :

---

١ - من قصيدته في مدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، ومطلعها .

طلل الجميع لقد عفوت حميدا وكفى على رزئي بذاك شهيدا

(الديوان ١ / ٤١٠) كان في الأصل (بسوف) بدلا من شرف ، يريد أن ما كان حديثا جديدا كان خلقا لا يتفكر فيه .

٢ - من قصيدته في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري (الديوان ٢ / ٣١٧) كان في الأصل (وهو تبع) و (هيجاء) و (جاحم) ، السلوب : التي سلب منها ولدها . المتبع التي يتبعها ولدها . خليجي كفه المراد الكف الواحدة . يقول : إذا كانت النعمة من منعم واحدة فإن نعمة هذا الممدوح يتبعها غيرها من النعم . مصيف من الهيجا : هذا اليوم صيف من حر الحرب مربع : مجتمع .

تُقَرِّبُ الشُقَّةَ القُصوى إذا أَخَذَتْ سِلاَحَهــا وهو الإرْقال والرَمَلُ
إذا تَظَلَّمْتُ من أرض فَصلْتُ بها كَانت هى العــزَّ إلا أنها ذُلَلُ
المرضياتُكَ ما أَرْغَمْــتَ أَنُفَهَـــا والهادياتُكَ وهْيَ الشُرْدُ الضلَلُ (١)

وعلى هذا النحو ورد قوله :

وناَضرِةَ الصِّبا حين اسْبَكَــرَّتْ طِلاَعَ المِرْطِ والدِرْعِ اليَدِيِّ
تَشَكَّى الأَيْنَ من نصف سريع اذا قامت ومن نصف بَطِيِّ

وقد جاء لأبى نواس ذلك فقال :

أقلنى قد نَدِمْتُ علـى الذنوب وبالإقـرار عُـذْتُ من الجحــود
أنا استهديتُ عفوَك من قريب كما استعفيتُ سخطك من بعيد (٢)

فقابل بين الأضداد من الجحود والإقرار والعفو والسخط والقرب والبعد.

وعلى نحو من ذلك ورد قول عليّ بن جبلة فى أبى دُلَف العجْلى (٣) وهو :

---

١ - من مقطوعة يصف فيها شدة البرد بخراسان ويصف الإبل (الديوان ٣٦٠) والبيت الأخير بالديوان قبل الأول . والذى بالديوان (وهى الرشد والضلل) والإرقال والرمل ضربان من السير . ذلل : مطيعة منقادة .

٢ - من قصيدته فى مدح الحسن بن وهب (الديوان ٣ / ٣٥١)
اسبكرت : تم شبابها . طلاع المرط : ملؤه يعنى مرط المرأة .
اليدى : الواسع ، ويروى البدى بالباء وهو البديع المعجب . تشكى : تشتكى ، الأين : التعب .
نصف سريع : يريد خصرها الرقيق . نصف بطىء يريد ردفها الثقيل .

٣ - يعرف على بن جبلة بالعكوك ، كان مداحا مجيدا ووصافا بارعا ، وكان ضريرا ، مدح المأمون وحميد بن عبد الحميد الطوسى وأكثر من مدح أبى دلف وأجاد ومدح غير هؤلاء (طبقات الشعراء لابن المعتز ١٧٠ والشعر والشعراء ٥٥٠ وتاريخ بغـداد ١١/ ٣٥٩ وشذرات الذهـب ٢ / ٣٠) .

أَيْمُ المَهيرِ ونكاحُ الأَيِّمِ يوماك يوم أَبْؤُسٍ وأَنْعُمِ
وَجَمْعُ مَجْدٍ ونَدًى مقسَّمِ

وكذلك قوله أيضا :

هو الأمل المبسوط والأجل الذى يُمِرّ على أيامه الدهر أو يحلو
ولا تحسنُ الأيامُ تَفْعَــل فعلـه وإن كان فى تصريفها النقض والفعل
فعش واحداً أما الثَّراء فَمُسْلَمٌ مُبَاحٌ وأما الجار فهو حِمًى بَسْلُ

ومما جاء من هذا القسم قول البحترى :

أحسنَ اللهُ فى ثوابك عن ثَغْــر مضــاع أحسنـتَ فيـه البلاء
كان مستضعفـا فعــزّ ومحرو مًا فأَجْدى ومظلمـا فأضـاء (١)

ومن أحسن ما ورد له فى هذا الباب قوله :

أشكو إليك أناملا ما تنطوى بخلا وإملاقـا تُقَصِّفُها اليـدُ
أرضيهمُ قَولاً ولا يرضوننى فعلا وتلك قضيـة لا تُقْصَدُ
فأَذُمّ منهم ما يُذَمّ وربمـــا سامحتُهم فَحَمِدْتُ مالا يُحْمَدُ (٢)

وعلى هذا النهج ورد قوله :

وتوقعى منك الإساءة جاهـدا والعدلُ أَنْ أتوقــعَ الإحســانا
وكما يسرك لين مسّى راضيا فكذاك فاخش خشونتى غضبانا (٣)

١ - من قصيدته فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف (الديوان ١ / ٢) .

٢ - من قصيدته فى مدح أبى أيوب بن أخت أبى الوزير الديوان (١ / ١٧٦) والنص بالديوان (ما تنطوى بيسا) والضمير فى أرضيهم عائد على الناس فى قوله :

الناس حولك روضة ما ترتقى ريا النبات ومنهل ما يورد

٣ - من قصيدته فى عتاب أبى العباس بن بسطام الديوان (٢ / ٢٧٩) .

وأما أبو الطيب المتنبى فإنه استعمل هذا النوع قليلا فى شعره ، فمن ذلك قوله :

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دُعُوا   كثيرٌ إذا شَدّ واقليل إذا عُدُّوا (١)

وكذلك قوله :

إلى رَبِّ مالٍ كلما شتّ شمله   تجمع فى تشتيته للعُلا شَمْلُ (٢)

ومما استعذبته قوله فى هذا الباب :

كأن سهاد الليل يعشق مقلتى   فبينهما فى كل هجر لنا وصل (٣)

ومما جاء من هذا الباب :

لما اعتنقنا الوداع وأعربت   عبراتنا عنا بدمع ناطق

فرقن بين معاجر ومحاجر   وجمعن بين بنفسج وشقائق (٤)

وهذا تحته معنى يسأل عنه غير المقابلة ، وذهب بعض أهل العلم إلى أن

---

١ - من قصيدته فى مدح محمد بن سيار بن مكرم التميمى ، التى مطلعها :

أقل فعالى بله أكثره مجد.. وذا الجد فيه نلت أم لم أنل جد

(الديوان ٢ / ١٠٨) ثقال : نعت لمشايخ فى البيت السابق له ، يريد أنهم ثقال الوطأة على العدو . خفاف : سريعو الإجابة للنجدة . كثير إذا شدوا دلالة على أن الواحد منهم يسد مسد الجماعة .

٢ - من قصيدته فى مدح شجاع بن محمد الطائى المنبجى ، التى مطلعها :

عزيز أسى من داؤه الحدق النجل   عياء به مات المحبون من قبل

(الديوان ٣ / ٣٧٠) شت : تفرق . الشمل : الاجتماع ، أى كلما تفرق شمل ماله اجتمعت معاليه .

٣ - من القصيدة نفسها .

٤ - المعاجر : جمع معجر على وزن متجر ثوب تعتجر به المرأة .

المحاجر : جمع محجر على وزن مجلس وهو للعين .

المراد بالبنفسج والشقائق هو عارض الرجل وخد المرأة ، لأن من العادة أن يشبه العارض بالبنفسج . وهذا قول غير سائغ ، لأن العارض إما يشبه بالبنفسج عند أول ظهوره ، فإذا طرّ وظهرت خضرته فى ابتداء سن الشباب شبّه بالبنفسج ، لأنه يكون بين الأخضر والأسود، وليس فى الشعر ما يدل على أن المودع كان شابا قد طرّ عارضه ، والذى يقتضيه المعنى أن المرأة قامت للوداع فمزقت خمارها ، ولطمت خدها ، فجمعت بين أثر اللطم ، وهو شبيه بالبنفسج ، وبين لون الخد وهو شبيه الشقائق ، وفرّقت بين خمارها وبين وجهها بالتمزيق ولها ًوموجدة على الوداع ، هذا هو معنى البيت لا ماذهب إليه هذا الرجل .

[المقابلة فى المعنى دون اللفظ] : (١)

وأما المقابلة فى المعنى دون اللفظ فى الأضداد فمما جاء منه قول المقفع الكندى من شعراء الحماسة :

لهم جُلُّ مالى إن تتابع لى غِنِى   وإن قلّ مالى لم أكلفْهم رِفْداً (٢)

فقوله تتابع لى غنى بمعنى قوله كثر مالى ، فهو إذا مقابلة من جهة المعنى لا من جهة اللفظ ، لأن حقيقة الأضداد اللفظية إنما هى فى المفردات من الألفاظ نحو قام وقعد وحل وعقد وقل وكثر ، فإن القيام ضد القعود ، والحل ضد العقد ، والقليل ضد الكثير ، فإذا ترك المفرد من

---

١ - أنظر : كتاب المثل السائر لابن الأثير ص ١٥١ .

٢ - اسم الشاعر محمد بن ظفر بن عمير، من شعراء الدولة الأموية وكان فيما قالوا جميلا مشرق الوجه ، فكان يستر وجهه لجماله ، فسمى المقنع . وهذا البيت من أبيات اختارها أبو تمام فى الحماسة ، أولها .

يعاتبنى فى الدين قومى وإنما   ديونى فى أشياء تكسبهم حمدا

(شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٣ / ١١٧٨) .

الألفاظ وتوصل إلى مقابلته بلفظ مركب كان ذلك مقابلة معنوية لا لفظية ، فاعرف ذلك . ومثل ذلك فى القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ إن أنتم إلا تكذبون- قالوا ربنا يعلم إنا إليكم مرسلون ﴾ معناه : ربنا يعلم إنا صادقون . ومن أملح الطباق وأخفاه قوله تعالى ﴿ ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ﴾ حيث جعل القصاص الذى معناه القتل سبب الحياة .

[مقابلة الشيء بما ليس بضده] : *

وأما مقابلة الشيء بما ليس بضده فهى ضربان : أحدهما ألا يكون مثلا والآخر أن يكون مثلا ، فالضرب الأول يتفرع إلى فرعين :

الأول : ما كان بين المقابل والمقابل نوع مناسبة وتقارب ، كقول قريط ابن أُنَيْف :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً ومن إساءة أهل السوء إحسانا (١)

فقابل الظلم بالمغفرة ، وليس ضدًا لها ، وإنما هو ضد العدل ، إلا أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حسنت المقابلة بينهما وبين الظلم ، وعلى هذا جاء قوله تعالى ﴿ أشدّاء على الكفار رحماء بينهم ﴾ (٢) فإن الرحمة ليست ضد الشدة ، وإنما ضد الشدة اللين ، إلا أنه لما كانت الرحمة من مسببات اللين حسنت المقابلة بينها وبين الشدة .

وكذلك ورد قوله تعالى ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ، وإن تصبك مصيبة

---

* انظر : كتاب المثل السائر لابن الأثير ص ١٥١ .

١ - من أبيات فى الحماسة ، يقرع فيها قومه على تخليهم عن نصرته ، أولها :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

(شرح الحماسة للمرزوقى ١ / ٢٣ والتبريزى .

٢ - سورة الفتح : الآية ٢٩ .

يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ﴾ (١). فإن المصيبة سيئة ، لأن كل مصيبة سيئة وليس كل سيئة مصيبة ، فالتقابل ها هنا من جهة العام والخاص .

النوع الثانى : ما كان بين المقابل والمقابل به بعد ، وذاك مما لا يحسن استعماله كقول أم النُّحيف وهو سعد بن قرط وقد تزوج امرأة كانت نهته عنها فقالت من أبيات تذمها فيها :

تربَّصْ بها الأيام علَّ صروفَها ستَرمى بها فى جاحم متَسَعِّر
فكم من كريم قَدْ مَنَاه إلهه بمذمومة الأخلاق واسعة الحر (٢)

فقولها بمذمومة الأخلاق واسعة الحر من المقابلة البعيدة ، بل الأولى أن كانت قالت بضيقة الأخلاق واسعة الحر ، حتى تصح المقابلة ، وهذا مما يدل على أن العربى غير مهتد إلى استعمال ذلك بصنعته ، وإنما يجىء له منه ما يجىء بطبعه لا يتكلفه ، وإذا أخطأ فإنه لايعلم ولا يشعر به ، والدليل على ذلك أنه لو أبدلت لفظة مذمومة بلفظة ضيقة لصح الوزن وحصلت المقابلة ، وإنما يعذر من ينذر فى ترك المقابلة فى مثل هذا المقام إذا كان الوزن لا يواتيه.

وأما المحدثون من الشعراء فإنهم اعتنوا بذلك خلاف ما كانت العرب عليه، لا جرم أنهم أشد ملاءمة من العرب . (٣)

فمن ذلك قول أبى الطيب المتنبى :

لمن تَطْلُبُ الدنيا إذا لم تُرِدْ بها سرورَ محبٍ أو إساءةَ مجرمِ (٤)

فإن المقابلة الصحيحة بين المحب والمبغض لا بين المحب والمجرم، وليست متوسطة أيضا حتى يقرب الحال فيها ، وإنما هى بعيدة، فإنه ليس كل من

---

١ - سورة التوبة : الآية ٥٠ .

٢ - فى الأصل أم الحنف ، وابن قرظ ، لكن الذى فى شرح الحماسة للتبريزى ٤ / ٣٥٢ وفى شرحها للمرزوقى ٤ / ١٨٦٢ هو ما أثبتناه .

٣ - أنظر : كتاب المثل السائر لابن الأثير ص ١٥٢ .

٤ - هذه هى رواية الديوان (٤ / ٣٤٣) والبيت من قصيدة فى مدح كافور .

أجرم إليك كان يغضك .

[مقابلة الشيء بمثله] : *

الضرب الثانى فى مقابلة الشيء بمثله وهو يتفرع إلى فرعين : أحدهما مقابلة المفرد بالمفرد ، والآخر مقابلة الجملة بالجملة .

كقوله تعالى ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ (١) وكقوله تعالى ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً ﴾ (٢) وقد روعى هذا الموضوع فى القرآن كثيرا، فإذا ورد فى صدر آية من الآيات ما يحتاج إلى جواب كان جوابه مماثلا ، كقوله تعالى ﴿ من كفر فعليه كفره ﴾ (٣) وكقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ (٤)، وهذا هو الأحسن ، وإلا فلو قيل من كفر فعليه ذنبه ، كان ذلك جائزا . لكن الأحسن هو ما ورد فى كتاب الله تعالى ، وعليه مدار الاستعمال .

وهذا الحكم يجرى فى النظم والنثر من الأسجاع والأبيات الشعرية ، فأما إن كان ذلك غير جواب ، فإنه لايلتزم فيه هذه المراعاة اللفظية . ألا ترى أنه قد قوبلت الكلمة بكلمة هى فى معناها وإن تكن مساويةً لها فى اللفظ، وهذا يقع فى الألفاظ المترادفة ، وقد يستعمل ذلك فى الموضع الذى ترِد فيه الكلمة غير جواب .

ويلحق / بمراعاة النظير إيهام التناسب : أى ويسمى التناسب لخفاء آخر الكلام (مع) أوله .

وهو أن يجمع بين معنيين غير متناسبين بلفظين يكون لهما معنيان

---

* انظر كتاب المثل السائر ص ١٥٩ .

١ - سورة التوبة : الآية ٦٧ .

٢ - سورة النمل : الآية ٥٠ .

٣ - سورة الروم : الآية ٤٤ .

٤ - سورة الشورى : الآية ٤٠ .

متناسبان ، وإن لم يكونا مقصودين هاهنا ، فإن النجم مثلا مناسب لمعنى الشمس والقمر فى كون كل منهما كوكبا مضيئاً ، لكن المقصود بالنجم هنا معنى آخر غير مناسب .

وقيل النجم والشجر يناسبان الشمس والقمر من حيث إنهما ينبتان فى الأرض بتدبيرهما فى السماء ، ومن حيث إن كل واحد منهما داخل فى جنس الانقياد . نحو قوله تعالى : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ﴾ (١) .

« أى ينقادان إليه تعالى فيما خلق ، فإن النجم نبات ، أى الذى يظهر من الأرض لاساق له كالبقول ، وهو بهذا المعنى لا يناسب الشمس والقمر ، لكنه قد يكون بمعنى الكوكب ، وهو مناسب لهما » (٢) .

ومن مراعاة النظير :

تناسب الحروف المقطعة فى أوائل السور التى وردت فيها .

وردت هذه الحروف المقطعة فى أوائل تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم ولم تكن كلها على صورة واحدة بل كانت على أشكال مختلفة ، فمنها ما جاء على حرف واحد (٣) . وذلك فى ثلاث سور هى :

(أ) « ص والقرآن ذى الذكر » (٤) .

---

١ - سورة الرحمن : آية ٥ ، ٦ .

٢ - الحسن بن عثمان بن الحسين المفتى ، خلاصة المعانى ، بتحقيق د/ عبد القادر حسين ص ٤١٢ ، ٤١٣ دار الاعتصام .

٣ - د. / محمد احمد أبو فراخ ، الحروف المقطعة فى اوائل السور القرآنية دراسة نقدية للتأويلات العددية والتفسيرات الاشارية ، ص ٤٢ - ص ١٠٠ دار المنهل بجدة ، دار القادسية بالاسكندرية.

٤ - السورة رقم (٣٨) مكية وآياتها : ٨٨ .

(ب) « ق والقرآن المجيد » (١) .

(جـ) « ن والقلم وما يسطرون » .

ومنها ما جاء على حرفين : وذلك فى تسع سور مكية وهى : طه - طس (النمل) يس - حم (غافر) حم (فصلت) حم (الزخرف) - حم « الدخان » حم « الجاثية » - حم « الاحقاف » .

ومنها ما ألف من ثلاثة أحرف ، وذلك فى ثلاث عشرة سورة هى :

الم (البقرة) مدنية الم (آل عمران) مدنية .

الم (العنكبوت) مكية الم (الروم) مكية

الم (لقمان) مكية الم (السجدة) مكية

الر (يونس) مكية الر (هود) مكية

الر (يوسف) مكية الر (ابراهيم) مكية

الر (الحجر) مكية طسم (الشعراء) مكية

طسم (القصص) مكية . (٣)

ومنها المؤلف من أربعة أحرف وذلك فى سورتين : هما

أ - المص (الاعزاف) مكية ب - المر (الرعد) مكية ومنها المؤلف من خمسة حروف وذلك فى سورتين ، هما :

أ - كهيعص (مريم) مكية ب - حم عسق (الشورى) مكية.

---

١ - السورة رقم (٦٨) مكية وآياتها : ٥٢ .

٢ - سورة (ق) هى السورة (٥٠) .

٣ - د. / محمد احمد أبو فراخ ، الحروف المقطعة ص ٤٣ .

ويلاحظ أن ثماني وعشرين سورة من هذه السور المفتتحة بهذه الحروف قد جاءت ضمن الخمسين سورة الأولى فى المصحف الشريف ، ولا يوجد منها فى بقية السور سوى سورة « القلم » (١) .

وأنه أتى بعد افتتاحية كل سورة من هذه السور حديث عن القرآن ، وتنزيله وصفته ، ولم يخرج عن هذا السن إلا « الروم والقلم » ، ويمكن القول بأنهما تحدثتا عن القرآن وآياته كذلك فى داخل كل منهما . أما السور الأخرى فقد اتبعت حروفها المقطعة بذكر القرآن الكريم مما يوحى بوجود رابطة متينة بين الحروف والكتاب (٢) .

و « لقد تتبع العلماء الفاقهون الحروف المقطعة فى اوائل السور فوجدوا أن كل سورة من هذه السور قد اختصت بما بدئت به ، فلم تكن لترد « الم » فى موضع « الر » ولا « حم » فى موضع « طس » وذلك لأن هناك تناسبا بين افتتاحية السورة وآياتها ، فكل سورة بدئت بافتتاحية معينة ، تكون أكثر كلماتها وحروفها مماثلة لها ، فحق لكل سورة منها الا يناسبها غير الحروف الواردة فيها فلو وضع « ق » موضع « ن » لانعدم التناسب الواجب مراعاته فى كلام الله ، فلقد بدأت سورة (ق) بهذا الحرف ، لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف ، التى بنيت عليها السورة من ذكر القرآن ، والخلق وتكرار القول ، والقرب من ابن آدم ، وتلقى الملكين ، والعتيد ، والرقيب ، والسابق والقرين ، والالقاء فى جهنم ، والتقدم بالوعيد وذكر المتقين ، والقلب ، والقرين ، والتنقيب فى البلاد . والقتل ، وتشقق الأرض ، والقاء الرواسى ، والقاء السمع ، وخلق السموات والأرض ، والرزق والمتقين وأقوال جهنم ، والالقاء (٣) وغير ذلك من الدلالات الواضحة التى أحدثتها

---

١ - سورة القلم هى السورة (٦٨) .

٢ - د/ محمد ابو فراخ ، الحروف المقطعة ص ٤٤ ، ص ٩٣ - ٩٤ .

٣ - جلال الدين السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١١٢ بتصرف .

الكلمات المشتملة على حرف القاف الذى جاء فى افتتاحية السورة التى تتحدث عن القيامة وأهوالها وشدائدها ، وعن أقوال الكافرين وانكارهم البعث والنشور والقرآن المجيد ، فلفتت السورة أنظار الكفار إلى قدرة الله وعظمته فى الكون ، وذكرتهم بالعذاب الذى حلّ بالأقوام الذين كذبوا الرسل ، وأنكروا القيامة ، ونبهت السورة كفار قريش إلى ما سيلقونه من شدائد يوم الوعيد من قذف فى جهنم جزاء الطغيان ونسيان القرآن وانكار القيامة .(١)

ويذكر الزركشى أن سورة (ص) قد بدأت بهذا الحرف لاشتمالها على خصومات متعددة فأولها خصومة النبى صلى الله عليه وسلم مع الكفار وقولهم أجعل الآلهة إلها واحدا ثم اختصام الخصمين عند داود ، ثم تخاصم أهل النار ، ثم اختصام الملائكة فى الملأ الأعلى بشأن قصة آدم حين قال لهم ربهم « إنى جاعل فى الأرض خليفة » ثم تخاصم ابليس فى شأن آدم ثم فى شأن بنيه وأغوائهم إلاّ عباد الله المخلصين ، إلى غير ذلك من الكلمات الكثيرة المشتملة على حرف الصاد الذى بدأت به السور والذى يؤكد التناسب بين الافتتاحية والآيات ، ولم تكن عناية العلماء شديدة بالحروف المقطعة فى أوائل السور فحسب ، بل كانت كذلك فى جميع كلمات القرآن وحروفه وآياته كلها . لقد عنى العلماء بالقرآن كله عناية عظيمة ، حتى لم يبق حرف ولا كلمة إلا حصروها وعدّوها ، فآيات القرآن ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية ، وحروفها ثلاثمائة الف حرف وستمائة حرف وسبعون حرفا ، وكلماتها سبعون ألفا وسبعة آلاف وأربعمائة وسبع وثلاثون كلمة ، أما نقطه فهى مائة الف وخمسون الف وستة آلاف وإحدى وثمانون نقطة . بل إن العلماء قد عدوا جملة كل حرف من حروف القرآن على حدة .(٢)

---

١ ، ٢ - د/ محمد ابو فراخ ، الحروف المقطعة ص ٤٤ ، ص ٩٥ .

سر تكرار حروف الافتتاحية فى السورة هو مراعاة التناسب التام بين اللفظ والمعنى :

لم يكن تكرار الكلمات التى اشتملت على حروف الفواتح للاشارة إلى قدسية عدد معين ، أو تكريم طائفة معينة ، وإنما هو للاشارة إلى اعجاز النظم القرآنى فى حروفه وكلماته وآياته ، وتلاؤم كل حرف وكل كلمة فى هذا القرآن مع المعنى والغرض الذى سيقت له ، بل إن كل حرف من هذه الحروف أدخل فى إبراز المعنى وأنسب من غيره فى تحقيق المراد ، وأدل عليه من أى حرف آخر ، فهنالك علاقة بين الصوت الذى يؤديه الحرف أو الحروف التى جاءت فى أول السورة وبين المعنى ، وبعبارة أخرى هناك علاقة بين مبنى الحرف ، وبين ما يدل عليه من أحداث معبرة « وكلما ازدادت العبارة شبها بالمعنى كانت أدل عليه، وأشهد بالغرض فيه » (١) .

أى أن بين الألفاظ والحرف المكونة لها والمعانى المقصودة منها : تناسب قويا يستحق الاعجاب والتبجيل ، فقد عبرت الكلمة أو الحرف المختار عن مقصده بأتم وجه ، حيث اختيرت الحروف التى ناسبت أصواتها أحداثها (٢) .

فثمة علاقة بين الحرف ، وبين المعنى الذى يدل عليه وبين هذا الحرف فى الكلمة ، والمعنى الذى تعبر عنه الكلمة بحروفها كلها . قال السيوطى نقلا عن علماء أصول الفقه : « ان بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة لواضع على أن يضع . وإلا كان تخصيص الاسم المعين بـ المسمى المعين ترجيحا من غير مرجح » (٣) فهنالك تناسب بين الألفاظ فى داخل السورة التى تكررت فيها حروف الافتتاحية وبين المعانى المرادة منها ، يقول السيوطى

---

١ - ابو الفتح عثمان بن جني - الخصائص جـ ٢ ص ١٥٢ .
٢ - د/ محمد ابو فراخ ، الحروف المقطعة ص ٤٤ ، ص ٩٧ - ٩٨ .
٣ - عبد الرحمن جلال الدين السيوطي - المزهر في علوم اللغة وانواعها جـ ١ ص ٤٧ .

مشيرا إلى مناسبة اللفظ للمعنى « وأما أهل اللغة العربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعانى (١) » .

ويرى العقّاد أن العربية لغة متميزة عن غيرها من اللغات لا فى كلماتها وتعابيرها وتراكيبها فحسب ، بل فى لبنات البناء وحروف الهجاء التى هى بمثابة الخلايا الحيّة التى تتركب منها البنية القوية ، والتى تصلح للتركيب فى كل التعبيرات التى تتناول الموضوعات المختلفة التى يتألف منها طرز الكلام .

« إنها اللغة الشاعرة فى حروفها قبل أن تتألف منها كلمات ، وقبل أن تتألــف من الكلمات تفاعيــل ، وقبــل أن تتألــف من التفاعيــل بيوت وبحور » (٢) .

ويرى العقّاد أن الارتباط موجود وكائن بين بعض الحروف ودلالة الكلمات ، فالفاء مثلا تدل على الابانة والوضوح فى : فرح ، وفتح ، وفخر الخ ، والضاد يدل على الشؤم فى : ضياع وضلال وضنك وضيق .

والحاء أدخل فى الدلالة على المعانى المرغوبة كالحب والحرية والحياة والحكمة والحلم ، ولكن هذه الحروف لاتتساوى فى الدلالة على المعانى ، فهى تختلف باختلاف قوتها وبروزها فى أصولتها (٣) .

ان حرف القاف المجهور المنفتح المستعل المقلقل الصلب اليابس لهو أشد الحروف تلاؤما للاحداث التى عبرت عنها الكلمات المشتملة على هذا الحرف في داخل سورة (ق) التى يدور محورها حول القيامة وأهوالها التى ترتعد لها القلوب وتنشق السماء ويختل الكون ومع ذلك تسمع القول العجيب الغريب من كفار مكة الذين يستهزئون بالقيامة وبالقرآن الحق (٤).. وهكذا

---

١ - المكان السابق .
٢ - عباس العقاد : اللغة الشاعرة : اقرأ « الحروف » .
٣ - عباس العقاد : أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ص ٤٨ .
٤ - د/ محمد ابو فراخ ، الحروف المقطعة ، ص ٩٨ - ٩٩ .

كانت حروف فواتح السور مرتبطة بالكلمات التى جاءت فى سورها ارتباطا تاما كاملا فى لفظها وموضوعها ﴿ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ (١) . وكان فى تكرار حروف كل افتتاحية فى كلمات السورة اقتدار رائع ، وإعجاز بليغ ، حيث اختيرت المفردات بعناية فائقة لتكون مشتملة على فاتحة السورة التى تستخدم حروفها وأصواتها فى إبراز المعانى المرادة من المفردات والمقاصد والأهداف التى سعت إليها الآيات .

هكذا يتبين لنا أن المناسبة أو التناسب أمر بالغ الأهمية فى إدراك اتساق المعانى ، وهو سمة ظاهرة فى الأسلوب القرآنى ومظهر من مظاهر الإعجاز فيه (٢) .

---

١ - هود : ١ .

٢ - د/ محمد ابو فراخ ، الحروف المقطعة ، ص ١٠٠ .

الوجه الثانى
من وجوه مراعاة النظير
وهو
المؤاخـــــاة

المؤاخـــــاة

ومن مراعاة النظير مايسميه البلاغيون « المؤاخاة » ، وهى داخلة فى معنى المناسبة ، وقد قال ابن الأثير فى معرض الكلام عن المناسبة القائمة على المطابقة :

« ومما يتصل بهذا الضرب ضربٌ من الكلام يسمى المؤاخاة بين المعانى والمؤاخاة بين المبانى ، وكان ينبغى أن نعقد له بابا مفردا ، لكننا لما رأيناه ينظر إلى التقابل من وجه وصَلْناه به . » (١)

المؤاخاة بين المعانى : *

يقول ابن الأثير : أما المؤاخاة بين المعانى فهو أن يذكر المعنى مع أخيه، لا مع الأجنبى ، مثاله أن تذكر وصفا من الأوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به ، فإن ذكرته مع مايبعد منه كان ذلك قدْحا فى الصناعة ، وإن كان جائزا .

فمن ذلك قول الكميت :

أم هل ظعائنُ بالعلّياء رافعةٌ   وإن تكامل فيها الدّلُّ والشَّنَبُ (٢) .

فإن الدّل يذكر مع الغَنَج وما أشبهه ، والشنبَ يذكر مع اللَّعَس وما أشبهه ، وهذا موضع يغلط فيه أرباب النظم والنثر كثيرا ، وهو مظنة الغلط ، لأنه يحتاج إلى ثاقب فكرة وحذق ، بحيث توضع المعانى مع أخواتها لا مع

١ ـ من كتاب : المثل السائر لضياء الدين بن الأثير ص ١٥٣ قدمه وعلق عليه د. أحمد الحوفى ، د . بدوى طبانة ـ دار نهضة مصر ـ الفجالة . القاهرة .

* من كتاب المثل السائر لابن الأثير ص ١٥٤ ومابعدها .

٢ ـ الشنب : ماء ورقة وعذوبة وبرد فى الأسنان .

الأجنبى منها .

وقرأت فى كتاب الأغانى لأبى الفرج أنه اجتمع نُصَيْبٌ والكميت وذو الرمة فأنشد الكميت « أم هل ظعائن » البيت ، فعقد نصيب واحدة ، فقال له الكميت : ماذا تحصى؟ قال خطأك ، فإنك تباعدت فى القول ، أين الدّل من الشنب؟ ألا قلت كما قال ذو الرُّمة :

لَمْيَاء فى شفتيها حُوَّةٌ ، لَعَسٌ   وفى اللّثات وفى أنيابها شَنَبُ (١)

ورأيت أبا نواس يقع في ذلك كثيرا كقوله فى وصف الديك :

له اعتـدالٌ وانتصـابٌ قَدّْ   وجلده يشبه وَشْىَ البُـرْدْ
كأنهـا الهُدَّاب فـى الفِرنِد   محدوب الظهر كريم الجد (٢)

فإنه ذكر الظهر وقرنه بذكر الجدّ ، وهذا لايناسب هذا ، لأن الظهر من جملة الخَلْق ، والجدّ من النسب ، وكان ينبغى أن يذكر مع الظهر مايقرب منه ويؤاخيه .

وكذلك أخطأ أبو نواس فى قوله أيضا :

وقد حَلَفْتُ يميناً   مبْرورةً لا تُكَـذَّبْ
برب زمزم والحو   ض والصفا والمحَصّب (٣)

فإن ذكر الحوض مع زمزم والصفا والمحصب غير مناسب ، وإنما يذكر

---

١ ـ الأغانى ١٣٤/١ . لمياء : سمراء الشفة . الحوة : حمرة مشوبة بسواد . اللعس : سواد مستحسن فى الشفة .

٢ - فى الديوان تحقيق الغزالى (٦٤٥) مقطوعة فى وصف ديك هندى ، أولها :

أنت ديكا من ديوك الهند   كريم عم وكريم جد

وليس بها هذان البيتان . لكنهما فى ديوانه من قصيدة فى وصف ديك (المطبعة العمومية)

٣ ـ من مقطوعة مطلعها :

حمدان مالك تغضب   على فى غير مغضب

(الديوان ٧٢٤) .

الحوض مع الصراط والميزان وماجرى مجراهما ، وأما زمزم والصفا والمحصب فيذكر معها الركن والحطيم وماجرى مجراهما .

وعلى هذا الأسلوب ورد قوله أيضا :

أَحْسَنُ من منزل بذي قار منزلٍ خَمّارة وخَمّار
وشم ريحانةٍ ونرجسةٍ أحسن من أينقٍ بأكوارِ (١)

فالبيت الثاني لامقارنة بين صدره وعجزه ، وأين شم الريحان من الأينق بالأكوار؟ وكان ينبغي أن يقول : شم الريحان أحسن من شم الشيح والقيصوم ، وركوب المنزل الروض أحسن من ركوب الأينق بالأكوار ، وكل هذا لايتفطن لوضعه في مواضعه في كل الأوقات . وقد كان يغلب على السهو في بعض الأحوال حتى أسلك هذه الطريق في وضع المعاني مع غير أنسابها وأقاربها ، ثم إنى كنت أتأمل ماصنعته بعد حين فأصلح ماسهوت عنه .

المؤاخاة بين المباني : *

وأما المؤاخاة بين المباني فإنه يتعلق بمباني الألفاظ .

فمن ذلك قول أبي تمام في وصف الرماح :

مُثَقَّفاتٌ سَلَبْنَ العُرْبَ سُمْرَتَهَا والرُّومَ زُرْقَتَهَا والعاشقَ القَضَفَا (٢)

---

١ ــ المطلع فى الديوان (١٦٠) :

أحسن من منزل بذى قار منزل خمارة بالانبار

الأكوار : جمع كور وهو الرحل .

٢ ــ البيت من قصيدة فى مدح أبى دلف القاسم بن عيسى العجلى (الديوان ٣٥٩/٣) ونصه فى الديوان :

مثقفات سلبن الروم زرقتها والعرب سمرتها والعاشق القضفا

مثقفات : مقومات . القضف : النحافة والضمور، يقول إنها مقومات معدلات ، سمر كالعرب ، زرق الأسنة كالروم ضامرة كالعاشق .

* ضياء الدين بن الأثير ، المثل السائر ، من ص ١٥٦ ومابعدها .

وهذا البيت من أبيات أبى تمام الأفراد ، غير أن فيه نظرا ، وهو قوله العرب والروم ، ثم قال العاشق ، ولو صح أن يقول العشاق لكان أحسن ، إذ كانت الأوصاف تجرى على (نهج) واحد ، وكذلك قوله سمرتها وزرقتها ، ثم قال : القضفاء ، وكان ينبغى أن يقول قضفها أو دقتها .

وعلى هذا ورد قول مسلم بن الوليد :

نَفَضَتْ بك الأحلاسُ نفض إقامة   واسترجَعَتْ نزّاعها الأمْصارُ

فاذهب كما ذهبت غَوادِى مُزنَةٍ   يُثْنى عليها السهلُ والأوْعار (١)

والأحسن أن يقال السهل والوعر ، أو السهول والأوعار ، ليكون البناء اللفظى واحدا ، أى أن يكون اللفظان واردين على صيغة الجمع أو الإفراد ، ولايكون أحدهما مجموعا ، والآخر مفردا .

وكذلك ورد قول أبى نواس فى الخمر :

صَفْراء مَجّدَها مَرازِبُها   جلّتْ عن النُظراء والمِثْلِ (٢)

مجمع وأفرد فى معنى واحد ، وهو أنه قال النظراء مجموعا ، ثم قال المثل مفردا ، وكان الأحسن أن يقول النظير والمثل ، أو النظراء والأمثال .

وعلى ذلك ورد قوله أيضا ، والإنكار يتوجه فيه أكثر من الأول ، وهو:

ألا يا ابن الذين فَنَوْا فماتوا   أما والله ما ماتوا لتبقــى

ومالك فاعْلَمَنْ فيها مُقامٌ   إذا استكملْتَ آجالا ورزقا (٣)

---

١ ــ من رثائه ليزيد بن مزيد ، والبيتان فى الديوان ٣١٣ .

٢ ــ من قصيدته التى مطلعها :

كان الشباب مطية الجهل   ومحسن الضحكات والهزل

(الديوان ٤٢) المرازب والمرازبة جمع مرزبان وهو أحد الحكام والقواد الفرس .

٣ ــ رواية الديوان ٩٨ (المطبعة العمومية)

ألا يابن الذين فنوا وبادوا   أما والله مابادوا لتبــقى

ومالك فاعلمن بها مقام   إذا استكملت آجالا ورزقا

وموضع الإنكار هاهنا أنه قال آجالا ورزقا ، وكان ينبغي أن يقول أرزاقا أو أن يقول أجلا ورزقا ، وقد زاده إنكارا أنه جمع الأجل فقال آجالا ، والإنسان ليس له إلا أجل واحد ، ولو قال أجلا وأرزاقا ، لما عيب ، لأن الأجل واحد والأرزاق كثيرة ، لاختلاف ضروبها وأجناسها .

وإذا أنصفنا في هذا الموضع وجدنا الناثر مطالبا به دون الناظم ، لمكان إمكانه من التصرف . وقد كنت أرى هذا الضرب من الكلام واجبا في الاستعمال ، وأنه لايحسن المحيد عنه ، حتى مر بي في القرآن الكريم مايخالفه ، كقوله تعالى في سورة النحل ﴿ أو لم يروا إلى ماخلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين وعن الشمائل ﴾ (١) . ولو كان الأحسن لزوم البناء اللفظي على سنن واحد لجمع اليمين كما جمع الشمال ، أو أفرد الشمال كما أفرد اليمين .

وكذلك ورد قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ﴾ (٢) فجمع القلوب والأبصار وأفرد السمع .

وكذلك ورد قوله تعالى : ﴿ حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ﴾ (٣) فذكر السمع بلفظ الإفراد وذكر الأبصار والجلود بلفظ الجمع .

وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة هكذا ، ولو كان هذا معتبرا في الاستعمال لورد في كلام الله تعالى الذي هو أفصح من كل كلام ، والأخذ في مقام الفصاحة والبلاغة إنما يكون منه والمعول عليه .

---

١ ـ النحل ٤٨ .

٢ ـ النحل ١٠٨ .

٣ ـ فصلت ٢٠ .

وينبغى أن يقاسِ على هذا قوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبّوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قِبْلَةً وبشر المؤمنين ﴾ (١) .

وربما قيل إن هذه الآية اشتملت على تثنية وجمع وإفراد ، وظُنَّ أنها من هذا الباب ، وليس كذلك لأنها مشتملة على خطاب موسى وهارون عليهما السلام أولا فى اتخاذ المساجد لقومهما ، ثم ثنّى الخطاب لهما ولقومهما جميعا ، ثم أفرد موسى عليه السلام ببشارة المؤمنين ، لأنه صاحب الرسالة » (٢) .

ومن مثل هذا فى القرآن الكريم قوله تعالى:﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون ﴾(٣) .

فإنه سبحانه وتعالى لم يقل خذوا « مواثيقكم » لأنه أراد ميثاق كل واحد منكم .

وفى سورة الحج : ﴿ ونقر فى الأرحام مانشاء ثم نخرجكم طفلا ﴾ (آية ٥) . ولم يقل أطفالاً ، أى يخرج كل واحد منكم طفلا .

وفى سورة غافر : ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ﴾ (٤) أى يخرج كلا منكم طفلا .

---

١ ـ سورة يونس : آية رقم ٨٧ .
٢ ـ انتهى كلام ضياء الدين بن الأثير ، من كتاب المثل السائر حتى آخر ص ١٥٩ .
٣ ـ سورة البقرة : آية رقم ٦٣ .
٤ ـ سورة غافر : آية رقم ٦٧ .

الوجه الثالث
من وجوه مراعاة النظير
الائتـــــلاف

الائتـــــلاف

هذا الوجه يراد به مراعاة كون الشىء مع نظيره حتى تتحقق الملاءمة بين الألفاظ . وفيه يقول السيوطى فى كتاب الإتقان فى علوم القرآن :

الائتلاف هو : « ائتلاف اللفظ مع اللفظ وائتلافه مع المعنى . »

الأول : أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضا ، بأن يقرن الغريب بمثله والمتداول بمثله ، رعاية لحسن الجوار والمناسبة .

والثانى : أن تكون ألفاظ الكلام ملازمة للمعنى المراد ، فإن فخما كانت ألفاظه فخمة ، أو جزلا فجزلة ، أو غريبا فغريبة ، أو متداولا فمتداولة، أو متوسطا بين الغرابة والاستعمال فكذلك ..

فالأول كقوله تعالى : ﴿ تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً ﴾ (يوسف ٨٥) أتى بأغرب ألفاظ القسم ، وهى التاء ، فإنها أقل استعمالاً ، وأبعد من أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو . وبأغرب صيغ الأفعال التى ترفع الأسماء وتنصب الأخبار وهى (تفتأ) ، فإن « تزال » أقرب إلى الأفهام وأكثر استعمالا منها ، وبأغرب ألفاظ الهلاك وهو الحرض ، فاقتضى حسن الوضع فى النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها فى الغرابة ، توخيا لحسن الجوار ورغبة فى ائتلاف المعانى بالألفاظ ولتتعادل الألفاظ فى الوضع وتتناسب فى النظم ، ولما أراد غير ذلك قال : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ (الأنعام ١٠٩) فأتى بجميع الألفاظ متداولة لا غرابة فيها .

ومن الثانى قوله تعالى: ﴿ ولاتركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ (هود ١١٣) . لما كان الركون إلى الظالم هو الميل إليه والاعتماد عليه دون مشاركته فى الظلم ، وجب أن يكون العقاب عليه دون العقاب على الظلم فأتى بلفظ المس . الذى هو دون الاحراق والاصطلاء .

وقوله : ﴿ **لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾ (البقرة ٢٨٦) ، أتى بلفظ الاكتساب المشعر بالكلفة والمبالغة فى جانب السيئة لثقلها .

وكذا قوله : ﴿ **فكبكبوا فيها** ﴾ (الشعراء ٩٤) فهو أبلغ من « كُبّوا » للإشارة إلى أنهم يكبون فيها كبا عنيفا فظيعا. وقوله: ﴿ **وهم يصطرخون** ﴾ (فاطر٣٧) فإنه أبلغ من « يصرخون » للإشارة إلى أنهم يصرخون صراخا منكرا خارجا عن الحد المعتاد .

ومن ذلك الفرق بين سقى وأسقى ، فإنّ « سقى » لما لاكلفة معه فى السقيا ، ولهذا أورده الله تعالى فى شراب الجنة فقال : ﴿ **وسقاهم ربهم شرابا طهورا** ﴾ وأسقى لما فيه كلفة ولهذا أورده فى شراب الدنيا ، فقال : ﴿**وأسقيناكم ماءً فراتا** ﴾ (المرسلات ٢٧) ، ﴿ **لأسقيناهم ماءً غدقا** ﴾ (الجن ١٦) لأن السقيا فى الدنيا لاتخلو من الكلفة أبداً » [١] .

وتأمل معى حسن الائتلاف والمواءمة بين الألفاظ فى قوله تعالى : ﴿ **إن تمسسكم حسنة تسوءهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا ، إن الله بما يعملون محيط** ﴾ (آل عمران ١٢٠) . عبر بالمس فى قوله ﴿ **إن تمسسكم حسنة** ﴾ وبالإصابة فى قوله ﴿ **وإن تصبكم سيئة** ﴾ وذلك للإشارة إلى أن الحسنة تسوء الأعداء حتى ولو كانت بأيسر الأشياء ولو مسًّا خفيفا ، وأما السيئة فإذا تمكنت الإصابة بها إلى الحد الذى يرثى له الشامت فإنهم لايرثون بل يفرحون ويسرون ، وهذا من أسرار بلاغة التنزيل ، أضف إلى ذلك حسن المقابلة بين الجملتين حيث قابل الحسنة بالسيئة والمساءة بالفرح ، وكذلك الانسجام الناشىء بين الألفاظ من توالى حروف الصفير فى حرف السين والصاد، وختم الآية ﴿**إن الله بما يعملون محيط**﴾ حيث أتى لفظ الإحاطة هنا ليشمل المعانى الكثيرة من العلم والإحاطة والتصرف حيال مكائد الكفار فأفاد أن الله سبحانه

---

١ ـ السيوطى ، الاتقان فى علوم القرآن ، ج ٣٠١/٣ .

وتعالى عالم بما يدبرونه للمؤمنين من المكائد وأنه يصرف أذى الكفار عنهم ويعاقب الكفار على نواياهم الخبيثة وفي ذلك معنى آخر هو الطمأنينة لأن الله يرد عن المؤمنين مكائد الكافرين بسبب إحاطته سبحانه وتعالى بها .

يقول الإمام السيوطي :

قال البارزيّ في أول كتابه « أنوار التحصيل في أسرار التنزيل » :

اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض ؛ وكذلك كل واحد من جزأي الجملة ، قد يعبَّر عنه بأفصح مايلائم الجزء الآخر ، ولابد من ا ستحضار معاني الجمل ، أو استحضار جميع مايلائمها من الألفاظ ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها ، واستحضار هذه متعذر على البشر في أكثر الأحوال ؛ وذلك عتيد حاصل في علم الله تعالى ، فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه ، وإن كان مشتملا على الفصيح والأفصح ، والمليح والأملح ، ولذلك أمثلة ، منها قوله تعالى : ﴿ وَجَنى الجنّتين دانٍ ﴾ (١) ، لو قال مكانه : « وثمر الجنتين قريب » ، لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجنى والجنتين ، ومن جهة أن الثمر لايشعر بمصيره إلى حالٍ يجني فيها ، ومن جهة مؤاخاة الفواصل . ومنها قوله تعالى : ﴿ وماكُنتَ تَتْلُو من قَبْله من كتاب ﴾ (٢) ، أحسن من التعبير بـ « تقرأ » لثقله بالهمزة ومنها ﴿ لاريب فيه ﴾ (٣) أحسنٍ من «لاشك فيه » لثقل الإدغام ، ولهذا كثر ذكر الريب ، ومنها : ﴿ ولاتهَنوا ﴾ (٤) ، أحسن من « ولاتضعفوا » لخفته ، و ﴿ وَهَنَ العظْمُ منّي ﴾ (٥) أحسن من «ضعف » لأن الفتحة أخف من الضمة ، ومنها ﴿ آمن ﴾ (٦) أخف من « صدّق » ، ولذا كان ذكره أكثر من ذكر التصديق . و ﴿ آثرك الله ﴾ (٧)

---

١ ـ الرحمن ٥٤ .
٢ ـ العنكبوت ٤٨ .
٣ ـ البقرة ٢
٤ ـ آل عمران ١٣٩ .
٥ ـ مريم ٤
٦ ـ البقرة ٦٢
٧ ـ يوسف ٩١

أخف من « فضّلك » و « آتى » (١) أخف من «أعطى» . و « أنذر » (٢) أخف من « خـوّف » و « خيرٌ لكم » (٣) أخف من « أفـضل لكـم » والمصدر في نحو : « هذا خلْق الله » (٤)، « يؤمنون بالغيب » (٥) ، أخف من « مخلوق » و « الغائب » و « تنكح » (٦) أخف من «تتزوج» ، لأن « تفعل » أخف من « تفعّل » ، ولهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر .

ولأجل التخفيف والاختصار ، استعمل لفظ الرحمة والغضب والرضا والحب والمقت في أوصاف الله تعالى ، مع أنه لايوصف بها حقيقة ؛ لأنه لو عبّر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام ، كأن يقال : يعامله معاملة المحبّ والماقت ، فالمجاز في مثل هذا أفضل من الحقيقة لخفته واختصاره ، وابتنائه على التشبيه البليغ ، فإن قوله : « فلمّا آسفُونا انْتَقَمْنَا منهُمْ » (٧) أحسن من « فلما عاملونا معاملة المغضب » ، أو « فلما أتوا إلينا بما يأتيه المغضب » . انتهى (٨) .

قال السيوطي : « ومثال ذلك من الحديث حديث الصحيحين « ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف أغبر ذى طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جوّاظ مستكبر » . وفي رواية أحمد : « أهل النار كل جعظري جواظ » . وفي رواية أبي نعيم : « كل شديد قعبرى منتكبر » أتى في أهل الجنة بألفاظ سهلة رقيقة وفي أهل النار بألفاظ فجة شديدة » (٩) .

---

١ ـ البقرة ١٧٧ .
٢ ـ الأحقاف ٢١ .
٣ ـ البقرة ١٨٤ .
٤ ـ لقمان ١١ .
٥ ـ البقرة ٣
٦ ـ البقرة ٢٣٠
٧ ـ الزخرف ٥٥
٨ ـ السيوطي ج ٤ ، ص ٢٥ ، ٢٦ من كتاب الإتقان في علوم القرآن .
٩ ـ السيوطي ، شرح عقود الجمان في علمي المعاني والبيان وبهامشه حلية اللب المصون على الجوهر المكنون للدمنهوري ، مطبعة الحلبي ، ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩م ، ص ١٠٨ .

الوجه الرابع
من وجوه مراعاة النظير
حسن النسق

حسن النسق *

وهو أن تأتى بكلمات من النثر أو النظم متتاليات ومتعاقبات منسوقة بعضها على بعض بحرف العطف مثل كلمة إذا أفردت كانت تقوم بمعنى مفرد مستقل وكل بيت إذا جرد من تلوه استقل معناه ولم يفتقر إلى غيره وان ضم تلوه صارا كأنهما بيت واحد . ومنه في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ (١) فأنت ترى هذه الجمل معطوفاً بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذى تقتضيه البلاغة لأنه سبحانه بدأ بالأهم إذ كان المراد إطلاق أهل السفينة من سجنها، ولا يتهيأ ذلك إلا بانكشاف الماء عن الأرض ، فلذلك بدأ بالأرض فأمرها بالابتلاع ، ثم علم سبحانه أن الأرض إذا ابتلعت ما عليها ولم تنقطع مادة السماء تأذى بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها وربما ينزل من السماء أكثر مما تبتلع الأرض فأمرها بالإقلاع بعد أن أمر الأرض بالإبتلاع ، ثم أخبر بغيض الماء عندما ذهب ما على الأرض ، وانقطعت مادة السماء وذلك يقتضى أن تكون ثالثة الجملتين المتقدمتين. ثم قال تعالى ﴿ وقضى الأمر ﴾ أى هلك من قدر هلاكه ، ونجى من قضيت نجاته ، وهذا كنه الآية وحقيقة المعجزة . ولابد أن تكون معلومة لأهل السفينة ولا يمكن علمهم بها إلا بعد خروجهم منها ، وخروجهم موقوف على ماتقدم . وبذلك اقتضت البلاغة أن تكون هذه الجملة رابعة الجمل، وكذلك استواء السفينة على

---

* انظر كتاب : الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان للإمام شمس الدين عبدالله بن محمد ابن أبى بكر ابن قيم الجوزيه ، ص ٢٦٣ ، مكتبة الهلال ، بيروت .

١ ـ سورة هود الآية ٤٤ .

الجودى أى استقرارها على المكان الذى استقرت فيه استقرارا لا حركة معه لتبقى آثارها عبرة لمن يأتى بعد أهلها وذلك يقتضى أن تكون بعدما ذكرنا . وقوله سبحانه وتعالى ﴿ **وقيل بعدا للقوم الظالمين** ﴾ ـ وهذا دعاء أوجبه الاحتراس ممن يظن أن الهلاك ربما شمل من لايستحق فدعا الله سبحانه وتعالى على الهالكين وسماهم ووصفهم بالظلم احتراسا من هذا الاحتمال وذلك يقتضى أن يكون بعد كل ما تقدم والله أعلم . فانظر إلى حسن هذا النسق كيف وقع القول فيه وفق الفعل سواء . وقد حكى أن ابن المقفع العبدى عارض آى القرآن فلما بلغ إلى هذه الآية أمسك عن المعارضة وقال: هذه الفصاحة التى لاتبارى والبلاغة التى لايسابق المتكلم بها ولا يجارى والقول الفصل الذى لايختلف فيه ولايتمارى » [1].

يقول الصابونى في صفوة التفاسير :

هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوت من بدائع الفوائد نهايتها وجمعت من المحاسن اللفظية والمعنوية مايضيق عنه نطاق البيان ، وقد اهتم بإظهار لطائفها وأسرارها العلامة أبوحيان حيث قال رحمه الله :

« فى هذه الآية أحد وعشرون نوعا من البديع : **المناسبة** فى قوله : ﴿**أقلعى وابلعى**﴾ **والمطابقة** بذكر الأرض والسماء ، **والمجاز** فى : ﴿**ياسماء**﴾ المراد مطر السماء ، **والاستعارة** فى: ﴿ **اقلعى** ﴾ **والإشارة** فى ﴿ **وغيض الماء** ﴾ فإنها إشارة إلى معان كثيرة ، **والتمثيل** فى : ﴿ **وقضى الأمر** ﴾ عبر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة الناجين ، **والإرداف** فى : ﴿ **واستوت على الجودى** ﴾ فلفظ واستوت كلام تام أردفه بلفظ ﴿ **على الجودى** ﴾ قصدا للمبالغة فى التمكن بهذا المكان ، **والتعليل** فى : ﴿**وغيض الماء**﴾ فإنه علة الاستواء ، **والاحتراس** فى : ﴿ **بعدا للقوم الظالمين** ﴾ وهو أيضا ذم لهم ، **والإيجاز** وهو ذكر القصة باللفظ القصير مستوعبا للمعانى الجمة ، وعدد بقية الوجوه وهى الإيضاح ، والمساواة ،

---

١ ـ ابن قيم الجوزية ، الفوائد المشوقة ، ص ٢٦٤

وحسن النسق ، وصحة التقسيم ، وحسن البيان ، والتمكين ، والتجنيس . والتسهيم ، والمقابلة ، والتهذيب ، والوصف » [١] .

ومثل هذا الجمال في حسن النسق تجده متحققا في كثير من الآيات وهو نهاية في الروعة والفصاحة ، واقرأ مثلا قوله تعالى في سورة الزمر : **﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجاىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون . ووفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون . وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ، وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمدلله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾** (الزمر من أية ٦٨ ـ ٧٤) .

تأمل قوله : **﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها .. ووضع الكتاب وجاىء بالنبيين .. وقضى بينهم بالحق .. ووفيت كل نفس ماعملت ﴾** .

ثم قوله **﴿ وسيق الذين كفروا .. وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها .. وقيل ادخلوا أبواب جهنم ﴾** .

ثم : **﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم .. وفتحت أبوابها، وقال لهم خزنتها .. وقالوا الحمدلله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾**.

---

١ ـ الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج ٢ ، ص ١٨ .

هذا التناسق الرائع والبيان الجميل والترتيب المتسلسل برونقه الذى يأخذ بالألباب ، وتوارد الجمل بصيغة البناء للمجهول ثم بصيغة الإخبار ، حيث نجد الجمل معطوفا بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذى تقتضيه البلاغة ، ثم الوصول بها إلى النتيجة النهائية حيث وفيت كل نفس ماعملت وحيث سيق الذين كفروا إلى جهنم ، وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة والترحيب بهم من جانب الملائكة فى حين لم يرحب الملائكة بالكفار ، كل هذا فى أسلوب يستحيل على المرء محاكاته ، فيقف الإنسان مبهورا فى كل مرة يقرأ فيها كلام الحق تبارك وتعالى مقرًّا بأنه لايستطيع أن يأتى بمثله إنس ولا جان ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

وتأمل كذلك روعة المعانى فى قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيى الموتى ، إنه على كل شيء قدير ﴾ (فصلت ٣٩) .

« لاحظ هذا التناسق الفنى فى التعبير والأداء ، وتأمل لفظ الخشوع والاهتزاز والانتفاخ للأرض الميتة يبعثها الله كما يبعث الموتى من القبور ، إنه جو بعث وإخراج وياله من تصوير رائع يأخذ بالألباب » (١) . »

ويتحقق التناسق هنا بين الجملتين « اهتزت وربت » بواو النسق التى تفيد بأنه بعد الحركة الشديدة فى اهتزاز الأرض بفعل المطر صار انتفاخ الأرض التى كانت يابسة فأصبحت منتفخة وأخرجت الزروع والثمار . ومثل هذا الإحياء للأرض الميتة يكون إحياء الموتى ولايقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى .

---

١ ـ محمد على الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج ٣/ ١٣٠ .

الوجه الخامس
من وجوه مراعاة النظير
الانسجـــام

فى الانسـجام

الانسجام هو عذوبة تحدر الكلمات مع روعة المعانى وسهولة الأداء ، بحيث يكون هناك موسيقا داخلية تنتظم الألفاظ ، نلمح ذلك فى الكلام عند ما نقرأه ونردده مرة تلو أخرى ، إذ يسهل علينا حفظه مع تدبر معانيه لسهولة نطقه واستيعابه .

ولنقرأ مثلا بعض رسائل إبراهيم بن العباس الصولى البغدادى أحد الكتاب المنشئين الموصوفين بالبلاغة والبراعة كتبها عن أمير المؤمنين إلى بعض البغاة الخارجين يتوعدهم :

أما بعد / فإن لأمير المؤمنين أناةً فإن لم تغن عَقَّب بعدها وعيداً ، فإن لم يغن أغنت عزائمه . والسلام .

وهذا الكلام مع وجازته فى غاية الإبداع فإنه ينشأ منه بيت شعر وهو :

أناةٌ فإن لم تغْنِ عقَّبَ بعدها
وعيداً ، فإن لم يغن أغنت عزائمه (١)

(طويل)

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعيلن مفعولن مفاعل

وكان إبراهيم يقول : ما اتكلت فى مكاتبتى إلاَّ على مايجلبه خاطرى ويجيش به صدرى (٢) .

وهذه العبارة الأخيرة هى القاعدة والأساس فى الروعة الصادرة عن صدق الإحساس وتضمينه الكلمات الدالة عليه ، فلا تكلف ولا تصنع ولا

---

١ ، ٢ - ابن العماد الأصفهانى ، شذرات الذهب ، ج ١٠٣/٢ .

إسفاف إذ تخرج الألفاظ سهلة مصيبة للمعانى المرجوة ، أما إذا تصنع الإنسان وتكلف فى الصياغة فإن ذلك يفسد الإنسجام فى الكلام وتضيع معه الموسيقى المؤثرة الباعثة على فهمه فى أيسر سبيل ، ولذلك قال الشاعر فى هذا المعنى :

ولست بنحوى يلوك لسانه   ولكن سليقى أقول فأعرب

والسليقة مع تمكن القائل من اللغة هى سر البيان والوضوح والجمال . ومن البيان انسجام الألفاظ المؤدية للمعنى المراد فى دفقة موسيقية مؤثرة .

وقد ذكر السيوطى الانسجام فى كتاب الاتقان فقال : (١)

هو أن يكون الكلام لخلوه من الانعقاد ، متحدراً كتحدّر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة ، والقرآن كله كذلك . قال أهل البديع : وإذا قوى الانسجام فى النثر جاءت قراءته موزونة بلا قصد ، لقوّة انسجامه . ومن ذلك ماوقع فى القرآن موزونا .

فمنه من بحر الطويل: ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (٢) .

ومن المديد : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾ (٣) .

ومن البسيط : ﴿ فأصبحوا لايُرَى إلا مَسَاكِنُهمْ ﴾ (٤)

ومن الوافر : ﴿ ويخزهم وينصركم عليهم ويَشْفِ صدور قوم مؤمنين ﴾ (٥)

---

١ - انظر : السيوطى ، الاتقان ، ج ٢٩٦/٣ .

٢ - الكهف ٢٩ .

٣ - هود ٣٧ .

٤ - الأحقاف ٢٥ .

٥ - التوبة ١٤ .

ومن الكامل : ﴿ والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ (١) .

ومن الهزج : ﴿ فألقوه على وجه أبى يأتِ بصيراً ﴾ (٢)

ومن الرجَز : ﴿ ودانية عليهم ظلالها وذُلّلت قُطُوفُها تذْليلا ﴾ (٣)

ومن الرمَل : ﴿ وَجِفَانٍ كالْجواب وَقُدُورٍ راسياتٍ ﴾ (٤)

ومن السريع : ﴿ أو كالذى مرّ على قرية ﴾ (٥)

ومن المنسرح : ﴿ إنّا خلقنا الإنسان من نطفة ﴾ (٦)

ومن الخفيف : ﴿ لايكادون يفقهون حديثا ﴾ (٧)

ومن المضارع : ﴿ يوم التّنَادِ ، يوم تُولّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ (٨)

ومن المقتضب : ﴿ فى قلوبهم مرضٌ ﴾ (٩)

ومن المجتث : ﴿ نَبِّىء عبادى أنّى أنا الغفور الرحيم ﴾ (١٠)

ومن المتقارب : ﴿ وأمْلى لهم إن كيْدى متين ﴾ (١١)

ونضيف إلى ماذكره السيوطى بحر المتدارك فنقول :

ومن المتدارك : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ (١٢).

قال الإمام السيوطى :

« قيل الحكمة فى تنزيه القرآن عن الشعر الموزون ، مع أن الموزون من الكلام ، رتبته فوق رتبة غيره ، أن القرآن منبع الحق ، ومجمع الصدق ،

---

١ ــ البقرة ٢١٣ .
٢ ــ يوسف ٩٣ .
٣ ــ الإنسان ١٤ .
٤ ــ سبأ ١٣ .
٥ ــ البقرة ٢٥٩ .
٦ ــ الإنسان ٢ .
٧ ــ النساء ٧٨ .
٨ ــ غافر ٣٢ ، ٣٣
٩ ــ البقرة ١٠ .
١٠ ــ الحجر ٤٩ .
١١ ــ الأعراف ١٨٣ .
١٢ ــ الكوثر ١ .

وقصارى أمر الشاعر التخييل ، يتصوّر الباطل فى صورة الحق والإفراط فى الإطراء والمبالغة فى الذمّ والإيذاء دون إظهار الحق ، وإثبات الصدق ، ولهذا نزّه الله نبيه عنه ، ولأجل شهرة الشعر بالكذب سمى أصحاب البرهان القياسات المؤدية فى أكثر الأمر إلى البطلان والكذب شعريّة . وقال بعض الحكماء : لم ير متديّن صادق اللّهجة ، مفلق فى شعره .

وأما ماوجد فى القرآن مما صورته صورة الموزون ، فالجواب عنه أن ذلك لايسمى شعراً ، لأن شرط الشعر القصد ، ولو كان شعراً لكان كل من اتفق له فى كلامه شيء موزون شاعراً ، فكان الناس كلهم شعراء ، لأنه قل أن يخلو كلام أحد عن ذلك ، وقد ورد ذلك على ألسنة الفصحاء ، فلو اعتقدوه شعراً لبادروا إلى معارضته والطعن عليه ، لأنهم كانوا أحرص شيء على ذلك ، وإنما يقع ذلك لبلوغ الكلام الغاية القصوى فى الانسجام . وقيل : البيت الواحد وما كان على وزنه لايسمى شعراً ، وأقل الشعر بيتان فصاعداً ، وقيل : الرّجز لايسمى شعراً أصلاً . وقيل : أقل مايكون من الزجر شعراً أربعة أبيات ، وليس ذلك فى القرآن بحال » (١) .

---

١ ـ السيوطى ، الاتقان فى علوم القرآن ، ج ٢٢/٣ .

الوجه السادس
من وجوه مراعاة النظير
تشابه الأطراف
و
مراعاة الفواصل

تشابه الأطراف *

ومن مراعاة النظير مايسميه بعض البلاغيين بتشابه الأطراف وهو أن يختم الكلام بما يتناسب مع أوله في المعنى .. كقوله تعالى : ﴿ **لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ (١) ، فقد ختمت الآية بما يناسب أولها ، إذ « اللطيف » يلائم « لاتدركه » الأبصار ، و « الخبير» يلائم « وهو يدرك الأبصار » ، لأن من يدرك الشيء يكون خبيرا به .. ومنه قوله تعالى : ﴿ **له مافي السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد** ﴾ (٢) ، فإن الذي يملك مافي السموات وما في الأرض يكون غنيا عن كل ماعداه ؛ ولما كان ما في السموات وما في الأرض مخلوقا لمنفعة العباد ، كان الخالق المنعم مستحقا للحمد من المنعم عليهم .. ومنه قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾ (٣) ، لأن الذي أنعم هذا الإنعام سخر ما في الأرض ، وسخر الفلك تجري في البحر ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض ، من يفعل ذلك يكون رءوفا رحيما بعباده ... ومما يروى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ قول الله عز وجل : ﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ (٤) ، فوضع القارىء : « غفور رحيم » مكان : « عزيز حكيم » قائلا : « فاعلموا أن الله غفور رحيم » ، فقال الأعرابي ، ولم يكن يقرأ القرآن : إن كان هذا كلام الله فلا ، الحكيم لا يذكر الغفران

---

* راجع كتاب علم البديع للدكتور بسيوني عبدالفتاح بسيوني .

١ ـ سورة الأنعام آية ١٠٣ .
٢ ـ سورة الحج آية ٦٤ .
٣ ـ سورة الحج ٦٥ .
٤ ـ سورة البقرة ٢٠٩ .

عند الزلل ، لأنه إغراء عليه ، فختام الآية بالعزة والحكمة يناسب ذكر الزلل بعد وضوح الحق وتبينه ... وروى أن الرسول ﷺ ، كان يملى على زيد بن ثابت قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأه خلقا آخر** ﴾ (١) وهنا قال أحد الصحابة : «فتبارك الله » ، فابتسم النبى ﷺ ثم قال : « بها ختمت » وختام الآية الكريمة ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ .. وورد أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ قوله تعالى : ﴿ **وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كُفِرَ** ﴾ (٢) ، فقرأها القارىء بفتح الكاف ، فقال الأعرابى : لايكون ، فلما قرأها القارىء بضم الكاف وكسر الفاء قال الأعرابى : يكون ...

« هذا وقد يكون التناسب بين ختام الآية وبين ماذكر فى أولها دقيا خفيا، لايدرك إلا بالتأمل وإطالة النظر ، على نحو مانرى فى قوله تعالى : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ (٣) فإن قوله : « وإن تغفر لهم » ، يوهم أن الفاصلة « الغفور الرحيم » ، ولكن عند التأمل وإمعان النظر يتضح أن الفاصلة ينبغى أن تكون ماعليه النظم الكريم لأنه لايقدر على تعذيب من يشاء ، والغفران لمن يشاء من عباده إلا العزيز الذى لايغالب ، وهو عندما يفعل ذلك ففى فعله الحكمة وإن خفيت تلك الحكمة على بعض خلقه ، فالمناسب إذاً هو أن تختم الآية بما ختمت به » (٤)ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون . هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل**

---

١ - سورة المؤمنين آية ١٤ .

٢ - سورة القمر آية ١٣ ، ١٤ .

٣ - سورة المائدة ١١٨ .

٤ - راجع د . بسيونى عبدالفتاح بسيونى ، علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ٣٤

شيء عليم ﴾(١) » فالمتبادر إلى الذهن أن تختتم الآية بالقدرة : « وهو على كل شيء قدير » ، ولكن عند تأمل النص الكريم وإمعان النظر فى سياقه يظهر ويتضح أن المناسب هو ماختتمت به الآية « وهو بكل شيء عليم » ، لأن تقدم ذكر خلق الأرض والسماء والتصرف فى العالم العلوى والسفلى وغير ذلك من الإحياء والإماتة ثم الإحياء ، كل هذا يدل على صدور تلك الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء ... (٢) . وكذا القول فى قوله تعالى : ﴿ لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء إلا أن تتقوا منهم تقاةً. ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير. قل إن تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شيء قدير﴾(٣)، فإن النظرة العجلى فى الآية الثانية توهم أن تكون الفاصلة « وهو بكل شيء عليم » ، ولكن بإمعان النظر وإطالة التأمل فى سياق النظم الكريم يتضح أن المناسب هو ختم الآية بالقدرة ، فاتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين لايكون إلا بزعم المتخذ أن الكافر يملك ويقدر على مالا يقدر عليه المؤمن من نفع ، ولذا حذر الله من يفعل ذلك من المؤمنين وبين لهم أن إليه مصيرهم ، وأنه عليم بهم وبما يخفون ويبدون بل هو عليم بما فى السموات وما فى الأرض وهو وحده القادر على تحقيق النفع لهم ، فينبغى على المؤمن أن يلجأ إلى قدرته تعالى وأن يستظهر بها ، وألا يوالى أعداءه الكافرين ، إذ لاقدرة لهم على نصره ، وإنما القادر هو الله ... وبهذا يتضح أن ختم الآية بالقدرة : « والله على كل شيء قدير » هو المناسب لسياق النظم الكريم ... إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تدق فيها المناسبة ، وتخفى على النظرة العجلى، وتحتاج إلى إطالة التأمل وإمعان النظر (٤).

---

١ - سورة البقرة ٣٨ ، ٣٩ . ٢ - انظر البحر المحيط ، ج ١ / ١٢٦ .

٣ - سورة آل عمران ٢٨ ، ٢٩ .

٤ - راجع ، د . بسيونى عبدالفتاح ، علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية ، ص ٣٥ .

ولايتسع المقام هنا للإحاطة بها . ومما خفي فيه وجه المناسبة بين ابتداء الكلام وآخره من أقوال البشر ماروى أن أبا الطيب المتنبى أنشد سيف الدولة قصيدته التى مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكرام المكارم

فلما بلغ إلى قوله :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ... كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

قال سيف الدولة : « قد انتقدتهما عليك كما انتقد على امرىء القيس قوله :

كأنى لم أركب جوادا للذة ... ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل ... لخيلى كرى كرة بعد إجفال (١)

فبيتاك لم يلتئم شطراهما ، كما لم يلتئم شطرا بيتى امرىء القيس وكان ينبغى له أن يقول :

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل ... لخيلى كرى كرة بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الروى للذة ... ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

وكذلك كان ينبغى لك أن تقول :

وقفت ومافى الموت شك لواقف ... ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... كأنك فى جفن الردى وهو نائم

فقد خفى على سيف الدولة وجه المناسبة فى البيتين ، وتوهم أن

---

١ ـ أتبطن : أجعلها بطانة أى : بطنى فوق بطنها ؛ والكاعب : التى برز ثديها . والزق : وعاء الخمر وسبأها : اشتراها لا للبيع ولا للتجارة بل للشراب ، والروى : الماء ، والكر : الرجوع على العدو ، والإجفال . الانهزام ...

المناسب أن يقرن وقوفه والموت لاشك فيه لواقف بوضوح الوجه وابتسامة الثغر ، لأن هذا يدل على تناهى شجاعته إذ يضحك فى مقام البكاء ، ويشرق وجهه حين يشتد العبوس وتكفهر الوجوه .. وأن يقرن مرور ا لأبطال كلمى مهزومين بسلامته كأنه فى جفن الردى وهو نائم ، لأن ذلك أدل على إرادة الله له الحفظ وتقديره له السلامة .. كما أن الذين انتقدوا بيتى امرىء القيس ، قد خفى عليهم وجه المناسبة فى البيتين ، وتوهموا أن المناسب أن يقرن ركوب الجواد بقوله للخيل كرى ليكون الحديث عن الخيل فى الشطرين .. وأن تقرن لذة الشراب بلذة النساء فى البيت الثانى ... ولكن المتنبى بين لسيف الدولة ماخفى عليه من المناسبة إذ قال له : « إن صح أن الذى استدرك على امرىء القيس هذا أعلم بالشعر منه ، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعلم أن الثوب لايعلمه البزاز كما يعلمه الحائك ، لأن البزاز يعرف جملته والحائك يعرف جملته وتفاصيله ، لأنه أخرجه من الغزلية إلى الثوبية ... وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذدة الركوب للصيد ، وقرن الشجاعة فى منازلة الأعداء بالسماحة فى شراء الخمر للأضياف للتضايف بين كل فريقين . وكذلك لما ذكرت الموت فى صدر البيت الأول ، اتبعته بذكر الردى فى آخره ليكون أحسن تلاؤما ، ولما كان وجه الجريح المنهزم عبوسا وعينه باكية ، قلت : « ووجهك وضاح وثغرك باسم » ، لأجمع بين الأضداد فى المعنى ... وقد راق ذلك سيف الدولة وأعجب به ووصله بخمسمائة دينار... (١) .

ومن خفى هذا الضرب قوله تعالى : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (٢) فإن قوله « وإن تعذبهم » يوهم

---

١ ـ د . بسيونى عبدالفتاح بسيونى ، علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، ص ٣٧ .

٢ ـ المائدة آية ١١٨ .

أن الفاصلة الغفور الرحيم ولكن إذا أُنْعِمَ النظر عُلم أنه يجب أن تكون ماعليه التلاوة لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلاّ من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه فهو العزيز لأن العزيز هو الغالب ، من قولهم عزه يعزه عزاً إذا غلبه ، ومنه المثل : (من عَزَّ بَزَّ) أى من غلب سلب ووجب أن يوصف بالحكيم أيضا لأن الحكيم من يضع الشيء فى محله ، والله تعالى كذلك ، إلاّ أنه قد يخفى وجه الحكمة فى بعض أفعاله فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة فكان فى الوصف بالحكيم احتراس حسن أى وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد فى ذلك والحكمة فيما فعلته[1].

---

١ ـ عبدالمتعال الصعيدى ، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة ، ص ١٥ .

مراعاة الفواصل

تتجلى روعة البلاغة فى القرآن المكى لاسيما سور المفصل ، حيث تأتى الآيات فيها قصيرة متوالية شديدة الإيجاز شديدة الوقع ، يتنوع فيها الأسلوب بين الترغيب والترهيب لتخلع الوثنية من قلوب العرب المشركين ، ولتثبت دعائم الإيمان فى صدورهم ، ولهذا نجد الإيجاز الشديد والمعنى المديد فى توالى الآيات القصار بحيث لايتسنى لبشر أن يأتى بمثل سورة واحدة من قصار سوره ، ولا حتى بآية واحدة مثل آياته ، وليس معنى الكلام أن باقى القرآن من مدنيه ومكيه لاتظهر فيه البلاغة كسور المفصل ، فإن ذلك مالا ينكره أحد ولكن السور المكية تتميز فى الأغلب بهذا الإيجاز لمناسبة بداية الدعوة والتأثير فى نفوس العرب الموصوفين بالأنفة والإباء .

وإنك لتجد الجرس الموسيقى السريع القوى فى الكلمات البليغة المتلاحقة لتترك فى نفوس العرب ونفوس المتكبرين المكابرين من أى ملة أثرا عظيما وروعا شديدا عند سماعهم لهذه الآيات الموجزة ذات المعانى المستفيضة ولعل ما فى ذلك التدافع فى الآيات القصيرة ذات النغم المتوافق الناجم عن تناسب الفواصل ماينبه حواس السامع إلى الاستجابة لذلك الجرس والتفاعل معه والتأثر به .

وقد سئل بعض العرب : ما البلاغة ؟ قيل : التقرب من المعنى والتباعد عن حشو الكلام ، ودلالة بقليل على كثير (١) .

كما سئل عبدالله بن عبدالله بن عتبة : ما البلاغة ؟ فقال : القصد إلى عين الحجة بتقليل اللفظ (٢) .

---

١ ، ٢ - ابن عبدالبر القرطبى ، بهجة المجالس ، ج ١ / ٧١ بتحقيق محمد مرسى الخولى ، ومراجعة د . عبدالقادر القط ، نشر : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة .

وقال غيره : البلاغة معرفة الفصل من الوصل ، وفرق مابين المشترك والمفرد ، وفصل مابين المقيد والمُطْلَق ومايحتمل التأويل ويستغنى عن الدليل[١] .

فغاية البلاغة إذن : إحراز المعنى بقليل اللفظ مع وضوحه بحيث يستغنى عن الدليل ، وأنت تجد ذلك فى القرآن واضحا بيّنا ، ففى أقصر سورة منه يتجلى لنا ذلك فاقرأ قوله تعالى : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر** ﴾ ، ولاحظ الفواصل مع جمال النغم الظاهر من تسكين حرف الراء عند القراءة ، بل توافق الحروف التى تتألف منها الكلمات بحيث إذا قطعنا الآية تقطيعا عروضيا وجدناها تتفق مع تفعيلة بحر المتدارك : فعلن فعلن فعلن فعلن ، ونلاحظ كذلك ملائمة الكلمات لأغراض السورة فكلمة الكوثر مثلا مما يحتمل التأويل ويستغنى عن الدليل ، وقد قيل إن معناها الخير الكثير ، وقيل إن الكوثر نهر من أنهار الجنة ، وقيل غير ذلك حتى بلغ ما ذكر فى الكوثر ستة وعشرين قولا ، ثم فعل الأمر (صل) الذى يجمع كل مظاهر العبادة وكلمة (لربك) حيث اللام للالصاق والاختصاص و (رب) التى تدل على الربوبية والملكية وأنه صاحب النعم والخيرات الكثيرة والدنيا والآخرة مع إضافة كاف الخطاب ومافيها من تعظيم النبى ﷺ . وفعل الأمر (انحر) بحيث لايكون النحر إلاّ للإبل وهو بمنزلة الذبح فى البقر والغنم ، ثم ملاءمة مابين شانئك والأبتر وهى أيضا مما يحتمل التأويل فلا يقتصر المعنى على لعن العاص بن وائل الذى قال حين مات القاسم ابن النبى ﷺ : « دعوه فإنه رجل أبتر لاعقب له »[٢] فأنزل الله هذه السورة لبيان أن العاص بن وائل هو الأبتر المطرود من رحمة الله وإن كان له أولاد . بل أن المعنى يمتدّ ليشمل كل من يبغض الرسول ﷺ .

---

١ ـ ابن عبدالبر القرطبى ، بهجة المجالس ، ج ١ / ٧١ .

٢ ـ على الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج ٣/ ٦١٦ ، ٦١٢ .

ونستطيع أن نوجز مظاهر البلاغة فى هذه السورة فيما تضمنته من وجوه البديع والبيان كما جاء فى تفسير الصابونى فيما يلى :

١ ـ صيغة الجمع الدالة على التعظيم (إنا أعطيناك) ولم يقل أنا أعطيتك.

٢ ـ تصدير الجملة بحرف التأكيد الجارى مجرى القسم (إنا) لأن أصلها إنا ونحن .

٣ ـ صيغة الماضى المفيدة للوقوع (أعطيناك) ولم يقل : سنعطيك لأن الوعد لما كان محققا عبر عنه بالماضى مبالغة كأنه حدث ووقع .

٤ ـ المبالغة فى لفظة (الكوثر) .

٥ ـ الإضافة للتكريم والتشريف (فصل لربك) .

٦ ـ إفادة الحصر (إن شانئك هو الأبتر) .

٧ ـ المطابقة بين أول السورة وآخرها بين (الكوثر والأبتر) حيث إن الكوثر تعنى الخير الكثير ، والأبتر تعنى المنقطع عن كل خير ، فهذه السورة على وجازتها جمعت فنون البلاغة والبيان فسبحان منزل القرآن [١] .

قال الشيخ محمد على الصابونى : *

مراعاة الفواصل وهى من خصائص القرآن ﴿ **وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار . أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار . إن ذلك لحق تخاصم أهل النار** ﴾ (ص ٦٢ - ٦٤) . فمثل هذا البيان الرائع والجرس العذب يسرى فى النفس سريان الروح فى الجسد ، وأقسم بالله أننى أشعر بهزة فى نفسى كلما قرأت القرآن لما له من وقع عذب على السمع ، وأحيانا أجدنى أتمايل طربا بدون شعور ، أكثر مما يتمايل المغرمون بالأنغام وما ذلك إلا لروعة البيان فى هذا القرآن وصدق رسول الله حين قال : « إن من البيان لسحرا » .

١ - محمد على الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج ٣ / ٦١١ ، ٦١٢ .

* محمد على الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج ٣ ، ص ٦٧ .

الوجه السابع
من وجوه مراعاة النظير
« المشـــاكلة »

المشاكلة

هذا النوع من البديع نرى أنه من الأليق ضمه إلى مراعاة النظير لأن فيه مراعاة لمقتضى الحال ، ومناسبة لمعنى الكلام ، فإذا قرأنا مثلا قوله تعالى: **﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾** نجد أن الله سبحانه وتعالى سمى جزاء العدوان عدوانا من قبيل المشاكلة وهى الاتفاق فى اللفظ والاختلاف فى المعنى ، والعرب تقول : ظلمنى فلان فظلمته أى جازيته بظلمه (١) ، لذا جعلناها وجها من وجوه مراعاة النظير ، من محض مناسبة وقوع الكلمة إلى جوار أختها لإصابة المعنى الدقيق المطلوب لها .

ومعنى المشاكلة : « ذكر الشيء بلفظ غيره لاقترانه به أى لوقوع ذلك الشيء فى صحبة ذلك الغير كما جاء فى قول أحمد بن محمد الأنطاكى (ت ٣٣٩) :

قالوا اقترح شيئاً نُجد لك طبخَه
قلت : اطبخوا لى جبّةً وقميصا » (٢)

والمشاكلة فى هذا البيت هى فى قوله اطبخوا فإنه أراد خيّطوا ، فذكر خياطة الجبة والقميص بلفظ الطبخ لوقوعها فى صحبة طبخ الطعام .

والمشاكلة فى اللغة هى المماثلة . وفى المصطلح هى ذكر الشيء بغير لفظه لوقوعه فى صحبته (٣) . كقوله تعالى : **﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾**

---

١ ـ تفسير الصابونى ، ج ١ / ١٢٧ .

٢ ـ الحسن بن عثمان بن الحسين المفتى (ت ١٠٥٩م) ، خلاصة المعانى ، ص ٤١٤ ، بتحقيق د . عبدالقادر حسين ، دار الاعتصام ، طبعة ١٩٩٣ .

٣ ـ خزانة الأدب لابن حجة الحموى ص ٤٣٥ . وقد عرف ابن حجة الحموى المشاكلة بقوله : « أن يأتى المتكلم باسم من الأسماء المشتركة فى موضعين فتشاكل احدى اللفظتين الأخرى فى الخط واللفظ ومفهومها مختلف » .

فالجزاء من السيئة فى الحقيقة غير سيئة ، والأصل جزاء سيئة عقوبة مثلها .

ومثله قوله تعالى : ﴿ **تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب** ﴾ والأصل تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما عندك فإن الحق تعالى وتقدس لا يستعمل فى حقه لفظ النفس إلا أنها استعملت هنا مشاكلة لما تقدم من لفظ النفس .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين** ﴾ والأصل أخذهم بمكرهم . ومنه قوله تعالى : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ أى فعاقبوه . فعدل عن ذلك لأجل المشاكلة اللفظية .

وفى الحديث قوله ﷺ : (فإن الله لايمل حتى تملوا) الأصل فإن الله لايقطع عنكم فضله حتى تملوا عن مسألته ، فوضع لايمل موضع لايقطع الثواب على جهة المشاكلة .

ومنه قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

ألا لايجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أى فنجازيه على جهله فجعل لفظ نجهل موضع فنجازيه لأجل المشاكلة. ومثله قول الشاعر :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه ... قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

أراد خيطوا فذكره بلفظ اطبخوا لوقوعه فى صحبة طبخه .

ويعد ابن حجة ماتقدم مشاكلة لفظية . وقد عد التبريزى منها قول أبى سعيد المخزومى :

حدق الآجال آجال ... والهوى للمرء قتال

لفظ الآجال الأولى : أسراب البقر الوحشية ، والثانية : منتهى الأعمار وبينهما مشاكلة في اللفظ والخط .

ولقد عرّفها السيوطي فقال :

هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا ، أو تقريراً ، فالأول كقوله تعالى : ﴿ **تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك** ﴾ (المائدة ١١٦) ، وقوله : ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾ (آل عمران ٥٤) .

فإن إطلاق النفس والمكر في جانب الله تعالى إنما هو لمشاكلة مامعه . وكذا قوله : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ لأن الجزاء حق لا يوصف بأنه سيئة. وقوله : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه** ﴾ (الشورى ٤٠) . وقوله : ﴿ **اليوم ننساكم كما نسيتم** ﴾ (الجاثية ٣٤). وقوله : ﴿ **ويسخرون منهم سخر الله منهم** ﴾ (التوبة ٧٩) . وقوله : ﴿ **إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم** ﴾ (البقرة ١٣٨) .

ومثال التقديري قوله تعالى : ﴿ **صبغة الله** ﴾ (البقرة ١٣٨) أي تطهير الله ، لأن الإيمان يطهر النفوس ، والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ، ويقولون : إنه تطهير لهم ، فعبر عن الإيمان بصبغة الله للمشاكلة بهذه القرينة .

وهكذا تعني المشاكلة في اللغة *: المشابهة والموافقة ، يقال شاكله أي: شابهه ، وفي اصطلاح البلاغيين : ذكر المعنى بلفظ غيره أو بلفظ مضاد للفظ الغير أو مناسب له لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا . فمن ذكر المعنى بلفظ غيره قوله تعالى: ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ (الشورى ٤٠) ، فالسيئة الثانية المراد بها : المجازاة أو العقاب ، وقد ذكر هذا المعنى : « المجازاة

* انظر : د . بسيوني عبدالفتاح ، علم البديع ، دراسة تاريخية ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ ص ٦٤ .

أو العقاب » بلفظ السيئة لوقوعه فى صحبة « السيئة » الأولى ، وفى هذا الأسلوب مايدعو إلى التنفير من السيئات لأن الجزاء عليها سيكون شديدا ورادعا ، سيكون سيئات مثلها لا جزاء وعقابا ... ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ (الانفال ٣٠) فقد سمى جزاء الله وعقابه لهم مكرا ليشاكل به مكر الكفار زيادة فى ترويعهم ومبالغة فى تعنيفهم وإيحاء بأن جزاءهم سيكون شديدا أليما ... وقوله تعالى : ﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ﴾ (سبأ ١٥ ، ١٦) ، فقد سمى البدل السىء « جنتين » لوقوعه فى صحبة جنتيهم ، وفيه مافيه من التهكم والسخرية ... وقوله عز وجل : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ (البقرة ١٩٤) ، والمراد - والله أعلم - « فمن اعتدى عليكم فجازوه على عدوانه » ، فذكر الجزاء بلفظ الاعتداء لوقوعه فى صحبة اعتدائهم ، وفى هذا تنفيز من الاعتداء فى الشهر الحرام وتحذير من التعدى على حرمات الله ، وحث للمؤمنين كى يتصدوا بقوة ردع وشدة زجر لمن اعتدى ، فجزاؤه وعقابه لن يكون جزاء وعقابا على عدوانه بل سيكون ردعا واعتداء ... وانظر إلى هذه الفاء فى قوله تعالى: « فاعتدوا » وماتنبىء به من وجوب المبادرة وسرعة الردع » (١). وقوله عز وجل : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون الله يستهزىء بهم ﴾ (البقرة ١٤ ، ١٥) ، فالمراد - والله أعلم - يجازيهم على استهزائهم، فذكر الجزاء بلفظ الاستهزاء ليشاكل استهزاء المنافقين وفيه شدة تحذير وقوة

---

١ - المصدر السابق ص ٦٥ .

ردع وزجر لهؤلاء المنافقين كي يكفوا عن نفاقهم وينتهوا عن استهزائهم. ومن أقوالهم ، قول عمرو ابن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فقد ذكر جزاء الجهل ومعاقبة فاعليه بلفظ « نجهل » مشاكلة لجهلهم وفيه قوة ردع وشدة تحذير لمن تسول له نفسه الاعتداء عليهم [١].

« وقول أبي الرقمين أحمد بن محمد الأنطاكي (ت ٣٩٩ هـ) وكان له إخوان أربعة ينادمهم أيام كافور الإخشيدي ، فجاءه رسولهم في يوم قارس البرد وليست له كسوة تقيه شره فقال له : إخوانك يقرءونك السلام ويقولون لك قد اصطبحنا اليوم وذبحنا شاة سمينة فاشته علينا مانطبخ لك منها فكتب إليهم :

إخواننا قصدوا الصبوح بسحرة فأتي رسولهم إلى خصوصا
قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت : اطبخو لي جبة وقميصا

فقد ذكر الشاعر « الخياطة » بلفظ الطبخ فقال : « اطبخوا لي » مكان « خيطوا لي » ليشاكل بها لفظ « الطبخ » السابق ..

ومثله قول الآخر :

قالوا : اتخذ دهنا لقلبك يشفه قلت : ادهنوه بخدها المتورد

فقد ذكر « التمتع » بلفظ « الدهن » فوضع : « ادهنوه » في موضع « متعوه » لوقوعه في صحبة « دهنا » السابق ..

وقد يكون اللفظ المصاحب مؤخرا والمعنى المذكور بلفظه مقدما عليه ، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله لايمل حتى تملوا » ، فالله عز وجل لايوصف بالملل ولكن نسب الملل إليه مشاكلة لملل عباده

---

١ ـ المصدر السابق ص ٦٥- ٦٦

والمعنى : إن الله لايقطع ثوابه حتى تملوا مسألته وعبادته ، وواضح أن اللفظ المشاكل فى الحديث وهو ملل الله قد وقع مقدما ، واللفظ المصاحب وهو ملل العباد قد وقع مؤخرا ... ومن ذلك قول العرب : « الجزاء بالجزاء » ، فالمراد بالجزاء الأول « العدوان » وقد ذكر بلفظ الجزاء لوقوعه فى صحبة الجزاء الثانى (١) .

ومنه قول أبى تمام :

من مبلغ أفناء يعرب كلها　　　أنى بنيت الجار قبل المنزل

فالجار لايبنى ولكن يختار وينتقى وقد ذكر الاختيار والانتقاء بلفظ البناء لوقوعه فى صحبة بناء المنزل ، ويلاحظ أن البناء قد حذف من الثانى لدلالة الأول عليه والتقدير : أنى بنيت الجار قبل بناء المنزل .

ومثله قول بعض العراقيين فى قاض شهد عنده برؤية هلال الفطر فلم يقبل شهادته :

أترى القاضى أعمى　　　أم تراه يتعامـــــى
سرق العيد كأن الـ　　　ـعيد أموال اليتامى

فالعيد لايسرق ولكنه جعله مسروقا لوقوعه فى صحبة أموال اليتامى التى يتأتى سرقتها .

ومن ذكر المعنى بلفظ مضاد للفظ غيره ، قول شريح القاضى لرجل شهد عنده : « إنك لسبط الشهادة » ، فقال الرجل « إنها لم تجعد عندى » ، فالمراد بالسبط هنا : الاستمرار فى حفظها وقبولها دائما وأداؤها فى ساحة القضاء ، والمراد بقوله « لم تجعد عندى » : لم تقصر عن إدراكى وحفظى، فمتى أدركتنى الشهادة حفظتها وتحملتها وأديتها فلا أكتمها .. والسبوط فى الأصل : انطلاق الشعر وامتداده ، والجعودة : قصر الشعر وعدم امتداده ،

---

١ ـ المصدر السابق ص ٦٦ ، ٦٧.

فقد ذكر قصر الشهادة بلفظ الجعودة لوقوعها فى صحبة « السبوطة » المضادة للجعودة ...

ومن ذكر المعنى بلفظ مناسب للفظ غيره، ماورد أن رجلا قال لوهب : « أليس قد ورد أن لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ » فقال : « بلى ولكن مامن مفتاح إلا له أسنان فإذا جئت بالأسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك ، فقد ذكر الأعمال بلفظ « الأسنان » لوقوعها فى صحبة « المفتاح » المناسب للأسنان ... هذا ولفظ المعنى المشاكل والذى ذكر المشاكل به قد يكون محققا ومذكورا فى الكلام وعندئذ تكون المشاكلة تحقيقية ، ويتضح لك هذا فى معظم ما مر بك من شواهد وقد يكون مقدرا فتسمى المشاكلة تقديرية [١]، كما رأيت فى بيت أبى تمام :

من مبلغ أفناء يعرب كلها　　　أنى بنيت الجار قبل المنزل

وفى قول الآخر :

سرقة العيد كأن الـ　　　ـعيد أموال اليتامى

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ (البقرة ١٣٦ – ١٣٨) فقوله « صبغة الله » مصدر مؤكد لمضمون قوله « آمنا بالله » والمعنى طهرنا الله بالإيمان تطهيرا، إذ الإيمان مطهر لنفوس المؤمنين ... والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه ماء المعمودية ويزعمون أن الولد يصير بذلك

---

١ ــ المصدر السابق ص ٦٧ .

نصرانيا حقا ، فأمر الله المؤمنين أن يقولوا : صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم ... فقد ذكر « التطهير » بلفظ الصبغة لوقوعه فى صحبة صبغة النصارى تقديرا لا تحقيقا ، لأن الصبغ ليس مذكورا فى كلام النصارى بل فهم من السياق والأحوال إذ الآية منزلة فى سبب ذلك الفعل وهو غمس أولادهم فى ماء « المعمودية » ..

ومن ذلك أن ترى رجلا يغرس أشجارا فتقول لآخر : « اغرس إلى الكرام » ، تريد بذلك : أحسن إليهم واصطنع لهم ، فذكر الاصطناع والإحسان بلفظ « الغرس » لوقوعه فى صحبته تقديرا ، إذ لم يتقدم ذكر الغرس ولكن فهم من الحال والمشاهدة ... [١]

بلاغة المشاكلة : [٢]

إذا نظرنا فى شواهد المشاكلة المذكورة نجد أن هذا الفن يفيد حسنا ومزايا نفتقدها إذا ماذكر اللفظ الحقيقى للمعنى المعبر عنه .. ولننظر فى قول عمرو السابق :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

نجد أن فى التعبير بلفظ « الجهل » مكان العقوبة والمجازاة إفادة لشدة التحذير وقوة الردع والزجر ، ولو قال عمرو : فنرد عليه أو فنجازيه على جهله أو فنعاقبه وتمنع جهله لما أفاد تلك الإفادة التى أفادتها المشاكلة ...

وإذا تأملنا الآيات الكريمة : ﴿ **إنما نحن مستهزءون . الله يستهزىء بهم** ﴾ ... ﴿ **وجزاء سيئة سيئة** ﴾ ... ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾ ... ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ..** ﴾ وجدنا أن المشاكلة قد أفادت كمال المبالغة فى التحذير والتنفير من ارتكاب السيئات والاستهزاء بالله والمكر به

---

١ - المصدر السابق ص ٦٨ .

٢ - د . بسيونى عبدالفتاح بسيونى ، علم البديع ، دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع ، ص ٦٩ ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧ .

والاعتداء على حرماته ، فجزاء تلك الأفعال لن يكون « جزاءً وعقابا » بل سيكون « مكرا » و « اعتداء » و « استهزاء من الله » و « سيئة » ، ونلحظ فى الآية الأخيرة قوة حث للمؤمنين كى يتصدوا لمن يعتدى على الشهر الحرام وعلى حرمات الله فتصديهم له ليس جزاء وعقابا بل هو « اعتداء » وفى ذلك مافيه من قوة الحث للمؤمنين حتى لاتنتهك حرمات الله وحتى لايكون هنالك مجال للتفكير فى الاعتداء عليها وانتهاكها ... وهكذا نجد أن هذا الفن يحقق مزايا ومحاسن نفتقدها عندما نعبر بالألفاظ الحقيقية لتلك المعانى المرادة » (١).

المجاز والمشاكلة :

« وعندما نتأمل أمثلة المشاكلة نجد أن معظم هذه الأمثلة من قبيل المجاز المرسل أو الاستعارة ، ففى قوله تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ .. ﴿**وبدلناهم بجنتيهم جنتين** ﴾ ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه** ﴾ ، نجد فى هذه الآيات مجازا مرسلا علاقته السببية حيث أطلق السبب وأراد المسبب ... وفى قول القائل : (اطبخوا لى جبة وقميصا) .. وقول الآخر : (ادهنوه بخدها المتورد) نجد مجازاً بالاستعارة حيث شبهت الخياطة بالطبخ ، والتمتع بالدهن ووجه الشبه هو أن الخياطة والتمتع مما ينبغى أن يكون موضع رغبتهم ومحل عنايتهم كما أن الطبخ والدهن كذلك ... وعلى الرغم من أن معظم شواهد المشاكلة من قبيل المجاز فإن للمشاكلة دورها فى حسن التعبير وبلاغته كما مر بنا ، فإذا كان فى قوله : (اطبخو لى) استعارة ... وفى قوله تعالى ﴿ **وجزاء سيئة مثلها** ﴾ مجازا مرسلا ، فإن فى وقوع (اطبخوا) فى صحبة (الطبخ) الأول ، وفى وقوع سيئة الثانية فى صحبة السيئة الأولى بلاغة وحسنا لايكونان ولا يتحققان لو كان المجاز بدون هذه الصحبة ... وبهذا نستطيع أن نقول إن المشاكلة قد ساهمت مع المجاز فى جمال الأسلوب وفى حسنه وسمو بلاغته (٢) .

---

١ ـ المصدر السابق .

٢ ـ المصدر السابق ص ٧٠ .

الوجه الثامن
من وجوه مراعاة النظير
وهو اللف والنشـــر

اللف والنشر

قال الإمام السيوطى فى اللف والنشر :

هو أن يُذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد ، أو إجمالا بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوض إلى عقل السامع ردّ كل واحد إلى مايليق به . فالإجمالى كقوله تعالى : ﴿ **وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى** ﴾ (١) ، أى وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلاّ اليهود ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلاّ النصارى، وإنما سوّغ الإجمال فى اللف ثبوت العناد بين اليهود والنصارى ، فلا يمكن أن يقول أحد الفريقين بدخول الفريق الآخر الجنة ، فوثق بالعقل فى أنه يردّ كل قولٍ إلى فريقه لأمن اللّبس ، وقائل ذلك يهود المدينة ونصارى نجران(٢) .

« ... وقد يكون الإجمال فى النشر لا فى اللّف ، بأن يؤتى بمتعدد ، ثم بلفظ يشتمل على متعدد يصلح لهما ، كقوله تعالى : ﴿ **حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر** ﴾ (٣) على قول أبى عبيدة : إن الخيط الأسود أريد به الفجر الكاذب لا الليل ، والتفصيل قسمان :

أحدهما أن يكون على ترتيب اللف ، كقوله تعالى : ﴿ **جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله** ﴾ (٤) فالسكون راجع إلى

---

١ ـ البقرة ١١١ .
٢ ـ السيوطى ، الاتقان ، ج ٣٢٠/٣ .
٣ ـ البقرة ١٨٧ .
٤ ـ القصص ٧٣

الليل والابتغاء راجع إلى النهار .

« وقوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾ (١) . فاللوم راجع إلى البخل ، ومحسوراً راجع إلى الإسراف ، لأن معناه : منقطعا لاشيء عندك .

وقوله : ﴿ ألم يجدك يتيما ... ﴾ الآيات ، فإن قوله : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾ و ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ ووجدك ضالا ﴾ فإن المراد السائل عن العلم كما فسّره مجاهد وغيره ، و ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ووجدك عائلا فأغنى ﴾ (٢) رأيت هذا المثال فى شرح الوسيط للنووى المسمى بالتنقيح .

والثانى : أن يكون على عكس ترتيبه ، كقوله : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم ... ﴾ (٣) .

وجعل منه جماعة قوله تعالى : ﴿ حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ (٤)، قالوا « متى نصر الله »: قول الذين آمنوا « ألا إن نصر الله قريب » قول الرسول .

وذكر الزمخشرى قسما آخر ، كقوله تعالى : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ﴾ (٥) ، قال : هذا من باب اللف ، وتقديره : « ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار » ، إلا أنه فصل بين « منامكم » و « ابتغاؤكم » بالليل والنهار لأنهما زمانان ، والزمان الواقع فيه كشيء واحد مع إقامة اللف على الاتحاد » (٦) .

---

١ ـ الاسراء ٢٩ .
٢ ـ الضحى ٨ .
٣ ـ آل عمران ١٠٦ .
٤ ـ البقرة ٢١٤ .
٥ ـ الروم ٢٣ .
٦ ـ السيوطى ، الاتقان ، ج ٣٢٢/٣ .

وقال الحسن بن عثمان المفتي عن اللف والنشر : *

وهو ذكر متعدد مرتبا أو غير مرتب ، معكوساً أو مختلفاً ثم ذكر ما لكل واحد من آحاد هذا المتعدد من غير تعيين ، أى وهذا اعتماد ، يعنى الذكر بدون التعيين لأجل الوثوق بأن السامع يردّه إليه ، يعنى يرد ما لكل واحد من آحاد هذا المتعدد من متعلقاته إلى ماهو له لعلمه ذلك بالقرائن اللفظية أو المعنوية ، فالمرتب وهو أن يكون المتعدد على سبيل التفصيل ، لأن النشر إما أن يكون على ترتيب اللف ، والثانى للثانى يعنى أن يرد الأول من النشر إلى الأول من اللف ، والثانى إلى الثانى وهلم جرا ، نحو قوله تعالى : ﴿ومِن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾(١) ذَكَر الليل والنهار على التفصيل ، ثم ذَكَرَ ما لليل وهو السكون فيه ، وما للنهار وهو الابتغاء من فضله على الترتيب .

أى فإن قيل : عدم التعيين فى الآية ممنوع ، فإن المجرور من « فيه » عائد إلى الليل لا محالة .

قلت : نعم ، ولكن باعتبار احتمال أن يعود إلى كل من الليل والنهار يتحقق عدم التعيين .

وغير مرتب معكوس ، أى ويكون على غير ترتيب اللف وهو ضربان : لأنه إما أن يكون الأول من النشر للآخر من اللف ، والثانى لما قبله وهكذا على الترتيب ، وليسمّ معكوس الترتيب نحو قول ابن حيّوس (٢) :

كيف أسْلُو وأنتِ حِقْفٌ وغُصْنٌ ... وغَزالٌ لَحْظاً وقَدّا ورِدْفَا ؟

---

* انظر : الحسن بن عثمان بن الحسين المفتى ، خلاصة المعانى ، طبعة دار الاعتصام .

١ ـ سورة القصص آية ٧٣ .

٢ ـ لعله ابن حيوس الأشبيلى ، ورواه ابن حجة فى خزانة الأدب غير منسوب لأحد ، وابن حيوس هو أبوالفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس وهو أحد الشعراء الشاميين المحسنين وله ديوان شعر كبير ، وكان منقطعاً إلى بنى مرداس أصحاب حلب ، ولد سنة ٣٩٤ هـ ، ت ٤٧٣ .

« فاللحظ أى الالتفات للغزال ، والقد للغصن ، والردف للحقف ، والسلوّ : خلو القلب عن العشق والمحبة .

والمعنى : كيف أسلو من حبك ، ودواعى المحبة من حسن السن واعتدال القامة ، وعظم الردف موجودة فيك ، وأنت سمينة لينة .

والمختلط : أى الثانى : وهو مايكون مختلط الترتيب نحو : هو شمس وأسد وبحر جوداً وبهاء وشجاعة : فالجود للبحر ، والبهاء للشمس ، والشجاعة للأسد » (١) .

«وأن يكون ذكر المتعدد على سبيل الإجمال نحو قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ (٢) الآية ، فإن الضمير في قالوا لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، فاللف مجمل والنشر مفصل ، فذكر الفريقان على الإجمال بالضمير العائد إليهما ، ثم ذكر ما لكل منهما ، فالمتعدد المذكور إجمالا هو الضمير فى قالوا ، أى وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، فلف بين نفس الفريقين والقولين إجمالا لعدم الالتباس ، أى ما بعد قالوا إنه بتمامه غير منسوب إلى جميع من أريد بالضمير فى قول : قالوا ، والاعتماد بأن السامع يرد إلى كل فريق أو كل قول مقولته للعلم بتضليل كل فريق صاحبه حتى لايثبت له الدخول فى الجنة ، فيكون قوله : إلا من كان هوداً من تتمة قول اليهود ، وقوله أو نصارى من تتمة قول النصارى ، وليس المراد أن كل فريق من اليهود والنصارى قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، حتى لايكون فيه لف ونشر ، واعتقاد كل فريق أن داخل الجنة هو لا صاحبه ، ولا يتصور فى هذا الضرب الترتيب وعدمه » (٣) .

---

١ ـ المصدر السابق ص ٤٢٣ .   ٢ ـ البقرة : ١١١ .
٣ ـ راجع ، الحسن بن عثمان بن الحسين المفتى ، خلاصة المعانى ، ص ٤٢٤ .

« ومن غريب اللف والنشر أن يذكر المتعددان أو أكثر ، ثم يُذكر فى نشر واحد مايكون لكل من آحاد المتعددين ، كما يقال : الراحة والتعب ، والعدل والظلم ، قد سدّ من أبوابها ماكان مفتوحاً ، هذا راجع إلى الراحة والعدل ، وفتح من طرقها ماكان مسدوداً ، وهذا إلى التعب والظلم .

وهاهنا نوع آخر من اللف والنشر لطيف المسلك ، وذلك كما تقول : ضربت زيداً وأعطيت عمراً ، وخرجت من بلد كذا للتأديب والإكرام [١] ، ومخافة الشر فعلت كذا ، وعليه قوله تعالى : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون** ﴾ [٢] الآية .

ومجمل القول : أننا فى هذا الفصل قد أوضحنا أن مصطلح « مراعاة النظير » يصلح لأن نتوسع فى معناه ليضم وجوها من البلاغة تتفق مع مسماه ، فلا يقتصر معناه « على جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد » ، بل يتعدى هذا المعنى ليشمل معانى أخرى قريبة الشبه به كالمؤاخاة والائتلاف ، وحسن النسق ، والإنسجام ، و « تشابه الأطراف ومراعاة الفواصل » ، والمشاكلة و « اللف والنشر » ، لأن كلاً منها يمتد إليه بسبب من الأسباب، وجعلناها وجوها لمراعاة النظير لأن إطلاق مسماه يسمح لكل تلك المعانى بالدخول تحت رايته ، وما أقدمنا عليه من محاولة ضم تلك المصطلحات الثمانية وجعلها وجوها له تتعلق به إنما يرجع فى الحقيقية إلى التيسير فى تحصيل الدرس البلاغى فى مجال علم البديع كى نقلل من التناثر فى دقائق

---

١ ـ فالضرب للتأديب ، والإعطاء للإكرام ، والخروج مخافة الشر .

٢ ـ سورة البقرة : آية ١٨٥ .

المعانى للأساليب التى تتسم بالصبغ البديعى فى نظم الكلام مستشهدين بنماذج من كلام العرب شعرا ونثرا ومن الحديث النبوى والآيات القرآنية مما ورد في كتب الأدب والبلاغة والتفسير حتى يتأكد المغنى الذى ذهبنا إليه .

ولايخفى على القارىء اللبيب مدى الإفادة من وراء هذا الدرس البلاغى تحت عنوان « مراعاة النظير » فى الوقوف على كثير من الفوائد التى تعينه على فهم بلاغة القرآن وأنه كلام معجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فلا يدانيه من كلام البشر شىء وأنه من لدن حكيم خبير.

الفصل الثالث
حول إعجاز القرآن

معنى إعجاز القرآن

المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد النبى تأييداً لدعوته ، ومعجزات موسى وعيسى قد انتهت بموتهما ، أما معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فهى باقية بين أيدينا وهى القرآن ، تركه بأمر ربه ليكون شاهداً على الناس حتى قيام الساعة ، ولتكون أمته بالقرآن شاهدة على الأمم من بعده ، ونحن إذا تعرضنا لدراسة وجوه الإعجاز فى القرآن فإنما ندرس مظاهر المعجزة لا حقيقة الإعجاز لأن حقيقته يعلمها الله وحده .

القرآن فى بديع رصفه ونظمه وأحكامه وانسجام كلامه كالوجود المنظم الذى تقع عليه أعيننا ونهتدى إليه بعقولنا فبديع إحكامه كبديع إحكام النظام الذى يشمل الوجود وهو محفوظ من لدن العلى الخبير كما السماء محفوظة من أن تقع على الأرض والتقديم والتأخير والترتيب العجيب بين ألفاظه إنما هو مثل التقديم والتأخير والترتيب العجيب الموجود بين المخلوقات ، فلا دخل فيه لبشر كما لادخل لبشر فى ترتيب نظام الكون ، لذلك تكفل الله بحفظه كما تكفل بحفظ القانون الذى يحكم خلق السموات والأرض ، وجعل الله فيه من الغيوب ما استأثر هو سبحانه بها كما جعل في الوجود حوالينا من الغيوب ما استأثر هو بها فنحن نقرأ القرآن وبه من الآيات مالايستطيع بشر أن يفك رموزها مهما كان قدر علمه كالحروف المقطعة أوائل السور ، كذلك نحن نقرأ الوجود حوالينا لكننا نعجز عن الوقوف على حقيقة بعض الأشياء كالاتزان بين نسبة الاكسجين إلى بقية الغازات فى الهواء الجوى أو تصريف الرياح وما إلى ذلك من الأمور التى استأثر الله بعلمها .

وكما يتفق لنا أن الوجود الذى نحياه لايتفاوت ولا يتباين وأنه يسير بنظام دقيق لايتغير كنظام الشمس التى تشرق فى الشرق وتغرب فى الغرب ،

والقمر له منازل لايخطئها ولايتعداها ، ونظام الأجرام السماوية الدقيق الذى لايختلف ولايختل بحيث كل ذلك تطمئن إليه النفس البشرية وترتاح له وتعتاده ، نجد القرآن العظيم أيضا لايتفاوت فى درجته الفنية وأنه يسير بنظام دقيق لايختلف ولايختل ، ومراد القول أن الوجود إنما يمثل بكل مكوناته وحدة واحدة تقبلها النفس البشرية والعقل الإنسانى وترتاح إليه وترى فيها إعجازا وتسليما وأن كل شىء فى الوجود موضوع لحكم بالغة لايمكن لبشر أن يتدخل فيها أو يعدل عليها بحيث لم نسمع مثلا فى الوجود أحدا يقول لو أن سلسلة جبال الألب كانت مكان سلسلة جبال أطلس لكان أفضل أو أن السماء منظرها يكون أروع لو كانت مستطيلة .. بل إن هناك تسليما بروعة الوجود وبديع نظامه وعظيم إحكامه ودقيق صنعه ، كذلك فالقرآن العظيم يمثل وحدة واحدة وأن كل آية فيه موضوعة فى مكانها لحكمة بالغة لايمكن لبشر أن يتدخل فيها أو يعدل عليها وأن هذا الانسجام بين الآيات ومواضعها والألفاظ وترتيبها هذا الذى يصنع الروعة والإعجاز .

قلنا إن هناك تسليما من المرء بالنسبة للوجود حواليه وأن هناك إعجازا فى الصنعة التى هى أصلا صنعة الله عز وجل والتى مهما حاول الإنسان تقليدها فلن يصل إليها ، ولنضرب مثلا لذلك الدرة الطبيعية الموجودة فى الطبيعة والجوهرة التى يصنعها الإنسان فالأولى باهظة الثمن لبهائها وأصالتها وجودتها وروعتها بحيث إن وضعت بين اللآلىء الصناعية تميزت عنها وفاقتها جمالا وزادتها بهاء فتهفو إليها النفوس وتستمتع بها الأنظار ، كذلك الكلمة من القرآن إذا وضعت بين سائر الكلام فإنها تتميز عنه بالرونق والفصاحة وتزيده بهاءً فتهفو إليها النفوس وتستمتع بها الأسماع ، وتتشوقها الآذان ، أليست هى الصنعة نفسها التى صنعت الدرة الطبيعية ونفس القدرة التى أعطتها تلك الهيئة وذلك الإعجاز ؟ .

كذلك الإعجاز فى القرآن الكريم فهو صنعة الخبير الذى أتقن كل

شيء صنعه ، فإن خبراء صناعة الجواهر حاولوا وأجهدوا أنفسهم كل الجهد لتقليد الدرة الطبيعية ولكن لم يصلوا فى جوهرتهم الصناعية إلى ما تتمتع به الدرة الطبيعية التى خلقها الله من صفات على الرغم من أنهم سلكوا فى سبيلهم غاية علومهم وعلموا كيف ينتهون إلى صناعة جوهرتهم وتفننوا فى ذلك غاية التفنن كما نراهم اليوم يضاهئون بالورد الصناعى الورود الطبيعية بحيث يخيل إلى الإنسان من غريب صناعتهم للوهلة الأولى أن ماصنعوه وردا طبيعيا ولكن ما أن يلمسه ويتفحصه يقف على حقيقة الأمر ، ويتبين له أن الأمر مجرد الشكل فقط فصناعتهم شكلية إذا قيست إلى الأشياء المخلوقة وهناك فرق عظيم بالطبع بين الصنعة الالهية والصنعة الشكلية الإنسانية ، ويظهر عجز الإنسان تماما عن أن يخلق مثل خلق الله أو يصنع كصنعه عز وجل ، وهنا يكمن معنى الإعجاز فالإعجاز هو سر الصنعة الإلهية ولن يصل إليه إنسان ، إذ هو من الأسرار الإلهية ، والعاجز عن معرفة نفسه عاجز بالطبع عن معرفة غيره ، ويظهر لنا ذلك واضحا عندما نستعرض معاً معجزة موسى عليه السلام حين دعا فرعون السحرة ليتحدى بهم نبى الله موسى عليه السلام وكان موقنا بأنهم هم الغالبون لأنه ظن أن ماجاء به موسى مجرد السحر ، فلما ألقى السحرة عصيهم خيّل إلى موسى وإلى الأشهاد من سحرهم أنها تسعى فلما ألقى موسى عصاه التى تحولت إلى حية حقيقية لها روح وتلتهم حبالهم فى جوفها تبين للسحرة مدى كذبهم وضعف حجتهم، ولذلك خروا ساجدين اعترافا منهم بعدما تبين لهم الحق وأسلموا لموسى وآمنوا ولم يأبهوا لتهديدات فرعون ولكن غرور الفرعون دعاه إلى أن يلصق بهم التهم ويقول عن موسى بأنه كبيرهم الذى علمهم السحر لينقذ ماء وجهه أمام الأشهاد بعدما رأى الحية تلتهم عصيهم وحبالهم فلا تبقى منها شيئا ، وكان من الممكن للحية أن تلدغ فرعون نفسه أو تناله بسوء ولكن الله لم يأمر بذلك ، ثم إذا بموسى عليه السلام يمسك بها فتعود سيرتها الأولى .

إن الذى جعل السحرة يخرون سجدا هو الإعجاز ، إنه سر الصنعة الإلهية ، وهؤلاء قوم قد اشتهروا بالسحر فلما رأوا موسى يصل فيها إلى حد الإعجاز تبين لهم أنه ليس من عنده لأنه هو نفسه يجهل السحر ولم يمارسه من قبل ولم يدّع أحد منهم ذلك برغم افتراء فرعون على موسى ، فأمية موسى بالسحر هى كأمية محمد صلى الله عليه وسلم بالكتاب الذى أنزل عليه فيظهر واضحا من هذا أن محمدا لم يأت به من عنده ، ولم يعلمه أحداً من الناس كما ادعى عليه قومه وألصقوا به التهم من أنه أى القرآن أساطير الأولين فهى تملى عليه بكرة وعشياً ؛ ولم يسبق لمحمد صلى الله عليه وسلم أن تعلم على عالم من علمائهم وإلاّ كانوا سارعوا بذكره ؛ ولما عجزوا تماماً عن الإتيان بمثل ما أوتى أو تحديه بما يماثله رموه بالسحر ؛ تماماً كما رمى فرعون موسى باالسحر لأنه أيقن عجزه وعجز سحرته عن أن يأتوا بمثل ما أتى موسى .

وصحيح أن الماثل أمام الناس أن موسى عليه السلام يمسك بالعصا وهى تتحول إلى حية تسعى أو يشق بها البحر أو يضرب بها الحجر فيتفجر منه اثنتا عشرة عينا ولكنها هى العصا نفسها التى يهش بها على غنمه .. فهى فى الحقيقة عصا عادية ولكنْ شاء الله لها أن تكون معجزة له لأن المعجزة دليل النبوة لكى يصدق الناس أن هذا الرجل اختاره الله ليكون رسولا إلى قومه ويبلغهم رسالات ربه لاسيما إذا كان هؤلاء القوم مفتونين بصناعة معينة واشتهروا بها كصناعة السحر الذى اشتهر به قوم موسى عليه السلام أو الطب الذى اشتهر به قوم عيسى عليه السلام ، وقد جاء عيسى عليه السلام بما لايستطيعه قومه من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وفى هذا إعجاز أيما إعجاز لهم ، وهذا الإعجاز الذى أتى به عيسى لا دخل له فيه لأنه يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص باذن الله وأبلغهم أن هذه الصنعة التى أتى لهم بها هى من عند الله ليؤمن به من يؤمن عن بينة ويكفر به من يكفر عن بينة ولكن عيسى وحده لايستطيع أن يأتى بمثل هذه الصفة من تلقاء نفسه

وهو لايدعيها لنفسه . لهذا قال تعالى فى سورة المائدة : ﴿ ... **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى اسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ ... (١١٠ المائدة) وكما هى العادة فى شأن الأمم آمن معه من آمن واتهمه أهل العناد والكفر بأنه ساحر ... كما اتهم فرعون ومن معه موسى من قبل بالسحر .. وكذلك أيضا نجد كفار قريش يقفون موقف الكفار والمعاندين من قوم موسى وقوم عيسى فيتهمون الرسول الكريم بالسحر لأنهم عجزوا أن يأتوا بمثل القرآن .. ثم نجد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يبلغهم أن القرآن هو وحى الله إليه ليبلغهم إياه ليؤمن به من يؤمن عن بينة وليكفر به من يكفر عن بينة ، ويبلغهم أيضا أن القرآن كلام الله لا دخل له فيه فهو يتلوه عليهم بإذن الله وليس من عنده ، ولذلك كان الرسول يصر على ألا يكتبوا عنه شيئا سوى القرآن حتى لايلتبس الأمر ويختلط حديثه بكلام الله بعد ذلك فكما كان يبلغ موسى قومه بأن ما أتى به هو من عند الله وكما أبلغ عيسى قومه بأن ما أتى به هو من عند الله فالرسول أيضا صلى الله عليه وسلم وعلى النبيين أجمعين بلغ الناس أن القرآن من عند الله أى أنه صنعة الله وماعلى الرسول إلا البلاغ . وما أن وصلنا إلى هذا الحد فإنه يكون قد تبين لنا أن الإعجاز هو سر الصنعة الإلهية نجده فى كل شىء حولنا فى الوجود فى المجرات وفى الهواء الجوى وفى البحار والأنهار وعموم الخلق يجرى عليه قانون إلهى واحد وهو الصنعة الإلهية التى لاتضارع . ولما كان قوم الرسول المصطفى صلوات الله عليه وسلامه قد اشتهروا بصنعة الكلام وارتقت لديهم اللغة وافتتنوا فيها وبلغوا فيها شأوا بعيدا جاءت معجزته الربانية فى البيان فهى من جنس كلامهم ومن جنس صناعتهم فجرى عليها القانون الربانى واكتست بالصنعة الإلهية فبرزت من بين كلامهم وفاقته إلى حد الإعجاز الذى هو التمام والابداع المتناهى فلا يعتريه نقص أو اعوجاج.

فلما عجز القوم كما قلنا عن الإتيان بمثله وعن تحديه بكلام يدانيه ماذا يصنعون؟ لم يعيبوا القرآن ولم تتطاول عليه ألسنتهم لعلمهم - وهم أهل صناعة كما نعلم - أنه ليس كمثله شيء ، فلم يملكوا إلا أن يتصرفوا تصرف الكفار من قبل فاتهموه بالسحر لعجزهم عنه .

ويتبين لنا هنا لطيفة أحب أن أذكرها وهي أن الله عز وجل تحدى الملائكة بعلم أودعه آدم حيث علمه الأسماء كلها وطلب إلى الملائكة أن يذكروا هذه الأسماء فعجزت الملائكة وذكرها لهم آدم عليه السلام فأمرهم الله بالسجود لآدم صاحب معجزة ذكر الأسماء التي طلبها الله عز وجل من الملائكة فعجزوا عنها ولهذا سجدوا كلهم أجمعون إلا أن هناك من استكبر وأبى أن يسجد كما سجدت الملائكة وهو إبليس اللعين فادعى لنفسه الأفضلية على آدم لا من ناحية العلم فهو عاجز تماما عجز الملائكة عن ذكر الأسماء إنما من ناحية الخلق ، قال : ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ أى أن عدم الاذعان لم يأت من ناحية المعجزة إنما جاء من ناحية الكفر والعناد والحسد فقد حسد آدم عليه السلام لأن الله اصطفاه وأجرى على يديه المعجزة فمثال الجماعة المؤمنة مثال الملائكة ومثال الجماعة الكافرة مثال إبليس اللعين .

وإن نحن بحثنا قضية الكفر عند الكفار لوجدنا أن سبب الكفر عندهم إما الاستكبار وإما الحسد ، وهما صفتان يكرههما الرحمن .

ولطيفة أخرى هي أن معجزة آدم معجزة كلامية فقد علمه الله الأسماء كلها وهي شيء لم تنله الملائكة ، ومعجزة الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا معجزة كلامية بيانية على خلاف كل المعجزات السابقة عليه .

وكل نبي أو رسول يظهر في قوم من الأقوام يؤتى حظا من المعجزات ويتحقق على يديه ما لا يتسنى لغيره من البشر في زمانه ليؤكد أنه مؤيد من قبل السماء وأنه إنما اختاره الله ليهدى قومه إلى صراط العزيز الحميد . إلا

أننا نجد أن المعجزات التى تحققت على أيدى الرسل من قبل رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم جميعها كانت وقتية ولزمن معين ، فلما شاءت الإرادة الإلهية أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم آخر الرسل وخاتم الأنبياء وأنه لانبى بعده كان لابد للمعجزة أن تظل موجودة بين أيدى الناس حتى تكون حجة عليهم ، فعصا موسى بعد وفاته بطل عملها ولم نسمع بمن حصل عليها وتحولت فيه يده إلى ثعبان عظيم أو شق بها بحرا ، كذلك صفة إحياء الموتى انتهت بعد عيسى عليه السلام ، أما القرآن وهو المعجزة التى أتى بها الرسول صلى الله عليه وسلم فهو باق أبد الدهر وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . والعجيب فى هذا الأمر أن القرآن كلام شفاهى وليس بمادة تحس وتمسك كالعصا وكان من الممكن أن ينتهى بانقضاء الرسول ويزول بزواله ولكن الله الخالق تكفل بحفظه وسخر له من يجمعه فى مصحف واحد إمام تماما كما ألقاه جبريل الأمين شفاهة على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وكتبه له بعض من صحابته وجمعوه فى مصحف واحد ومازال بيننا يتناقله خلف عن سلف ويقومون على خدمته ويتدارسونه فيما بينهم ويؤلفون فى علومه المؤلفات .

وبعد ...... فإن أسرار القرآن لاتحد ، ووجوه إعجازه لاتعد ، ولايستطيع أن يلم بذلك أحد . فالقرآن معجزة لأنه من صنع الخالق ، وصنعة الخالق لايدرى كنهها بشر ولايحيط بها عقل لأنها تخرج عن حدود العقل ، إذ لايستطيع الإنسان مهما أوتى من القدرة والبيان أن يأتى بمثل هذا القرآن ، ولا الجان ، لأن الجن أقرت بذلك واعترفت به إذ قالوا : ﴿ **إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا** ﴾ (سورة الجن ـ ٢) فإقرارهم بقولهم قرآنا عجبا ، يفيد بأنه يخرج عن طوقهم وأنهم لايستطيعون الإتيان بمثله . فهو معجزة لهم. وهؤلاء النفر من الجن الذين سمعو القرآن أدركوا الغاية منه وهى هدايته إلى الرشد فسارعوا إلى الإيمان به وأعلنوا الإذعان من فورهم إلى الوحدانية . وإن غاية ماترمى إليه المعجزة هى توحيد الخالق سبحانه وتعالى وتنزيهه عن النقص وعن الشريك .

وكما تبين لنا أن معجزة موسى فى جعل العصا حية ترجع إلى إعجاز

الصنعة الإلهية الذى بدا واضحاً للسحرة وهم أهل العلم بالسحر وقد أدركوا أنهم لايستطيعون الإتيان بمثله ، ولذلك فطنوا إلى الغاية مباشرة فأعلنوا إيمانهم فور رؤيتهم لهذا الإعجاز الربانى . نجد أيضا أن الجن قد فطنوا إلى إدراك هذا الإعجاز وأنه لايستطيعه الإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

وكذلك كان شأن الحواريين مع عيسى عليه السلام حين أدركوا الإعجاز الربانى وفطنوا إلى الغاية من معجزة إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والآيات التى جاءهم بها عيسى فاستجابوا له من دون قومهم وأعلنوا التوحيد حين قال لهم من أنصارى إلى الله ؛ ﴿ **قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ (ال عمران ٥٢ - ٥٣) .

ولسوف نجد أن الذين تطمئن قلوبهم بإدراك الإعجاز وتفهمه يسارعون إلى الإيمان بالله وتعظيمه وتوحيده فى حين أن هناك أقواماً يرون دلائل الإعجاز ولايدركون غايته ، فلا يؤمنون بالله حق الإيمان بل يشركون به .

تحـــدى القـــرآن

قال الصابونى :

« التحدى بعشر سور جاء بعد التحدى بالقرآن الكريم ، فلما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن تحداهم بعشر سور ، ثم لما عجزوا تحداهم بالإتيان بسورة من مثله فى البلاغة والفصاحة والاشتمال على المعانى والأحكام التشريعية وأمثالها ، وهى الأنواع التسعة وقد نظمها بعضهم بقوله :

ألاَ إنّما القــرآنُ تسعــةُ أحــرفٍ   سأُنبيكَهَا فى بيت شعرٍ بلا مَلَلْ
حلال ، حرام ، محكم ، متشابه   بشير ، نذير ، قصة ، عظة ، مثل (١)

---

١ - الصابونى ، صفوة التفاسير ، مكتبة الإيمان ، المنصورة أمام جامعة الأزهر ، الطبعة التاسعة ، ج ١٢/٢ .

و « يحكى أن الكندى الفيلسوف قال له أصحابه : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن ، فقال : نعم أعمل مثل بعضه ، فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد ، إنى فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ونهى عن النكث ، وحلل تحليلا عاما ، ثم استثنى استثناءً ، ثم أخبر عن حكمته فى سطرين ولايقدر أحد أن يأتى بهذا إلا فى مجلدات » (١).

« ولقد كان أهل الفصاحة من العرب يفهمون القرآن ، ويعلمون مراميه فهم أهل اللغة وهم أدرى من غيرهم بتصاريف الكلام العربى ومعرفة معانيه.

قال الأصمعى : قرأت يوما هذه الآية ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله ..** ﴾ وإلى جنبى أعرابى فقلت : والله غفور رحيم ، سهواً فقال الأعرابى : كلام من هذا؟ فقلت : كلام الله ، قال : ليس هذا بكلام الله ، أعد .

فأعدتُ وتنبهت فقلت ﴿ **... والله عزيز حكيم** ﴾ فقال الأعرابى : نعم هذا كلام الله ، فقلت : أتقرأ القرآن؟ قال : لا ، قلت : فمن أين علمت أنى أخطأت؟ قال الأعرابى : ياهذا ؛ عزَّ فحكَمَ فقطَعَ ، ولو غفر ورحم لما قطع » (٢).

ومعجزة القرآن تكمن فى أنه كلام ، والكلام سر الخلق لايعلمه إلا الله وحده الذى ﴿ **إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ (مريم ٣٥)، فالله خلق الأكوان بكلمة ، وخلق آدم بكلمة وخلق عيسى بكلمة ، فالكلام أشرف مافى الوجود ، وقد اختار الله سبحانه وتعالى الكلام العربى لقرآنه فقال عز من قائل: ﴿ **وكذلك جعلناه قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير** ﴾ (الشورى آية ٧) .

---

١ ، ٢ - الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج ٣٣١/١ ، ٣٤٢/١ .

ولذلك لن نستطيع أن ندرك معنى أن القرآن معجز إلاّ إذا فهمنا اللغة العربية وفهمنا معانيها لكى نتبين وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم .

روى أن أعرابى سمع هذه الآية : ﴿ **وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى** ﴾ (هود ٤٤) فقال : هذا كلام القادرين لايشبه كلام المخلوقين (١) ، ويروى أن ابن المقفع ـ وكان أفصح أهل زمانه ـ رام أن يعارض القرآن فنظم كلاماً ، وجعله مفصلاً ، وسماه سوراً ، فمر يوما بصبى فسمعه يقرأ الآية فرجع إلى بيته ومحا ماكان قد بدأ به ، وقال : أشهد أن هذا لايُعَارَض أبداً وماهو من كلام البشر (٢) .

قال السيوطى :

قال بعضهم : التحدّى إنما وقع للإنس دون الجن ؛ لأنهم ليسوا من أهل اللسان العربى الذى جاء القرآن على أساليبه ، وإنما ذكروا فى قوله : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن** ﴾ (النساء ٨٢) تعظيما لإعجازه ، لأن للهيئة الاجتماعية من القوة ماليس للأفراد ، فإذا فرض اجتماع الثقلين فيه، وظاهر بعضهم بعضاً ، وعجزوا عن المعارضة ، كان الفريق الواحد أعجز .

وقال غيره : بل وقع للجن أيضا والملائكة منويّون فى الآية ، لأنهم لايقدرون أيضا على الإتيان بمثل القرآن..

قال الكرمانىّ فى غرائب التفسير : إنما اقتصر فى الآية على ذكر الإنس والجن ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا إلى الثّقلين دون الملائكة (٣) .

« ... فإن قيل : هل تقولون إن غير القرآن من كلام الله معجز ، كالتوراة والإنجيل؟ قلنا : ليس شىء من ذلك بمعجز فى النظم والتأليف ،

---

١ ، ٢ ـ الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج ١٨/٢ ، مكتبة الإيمان ، المنصورة .

٣ ـ السيوطى ، الاتقان ، ج ٤ ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

وإن كان معجزاً كالقرآن فيما يتضمن من الإخبار بالغيوب ، وإنما لم يكن معجزاً لأن الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن ، ولأنّا قد علمنا أنه لم يقع التحدّى إليه ، كما وقع فى القرآن ولأن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة مايقع فيه التفاضل الذى ينتهى إلى حدّ الإعجاز ، قد ذكر ابن جنيّ فى الخاطريات فى قوله : ﴿ قالوا ياموسى إمّا أن تُلْقى وإما أن نكون أول من ألْقى ﴾ (طه ٦٥) : إن العدول عن قوله : « وإما أن نلقى » لغرضين : أحدهما لفظى ، وهو المزاوجة لرءوس الآى ، والآخر معنوى ، وهو أنه تعالى أراد أن يخبر عن قوة أنفس السحرة واستطالتهم على موسى ، فجاء عنهم باللفظ أتم وأوفى منه فى إسنادهم الفعل إليه .

ثم أورد سؤالا ، وهو : إنّا نعلم أن السحرة لم يكونوا أهل لسان ، فنذهب بهم هذا المذهب من صنعة الكلام ! وأجاب بأن جميع ماورد فى القرآن حكاية عن غير أهل اللسان من القرون الخالية ، إنما هو معرب عن معانيهم ، وليس بحقيقة ألفاظهم ، ولهذا لايشك فى أن قوله تعالى : ﴿ قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ (طه ٦٣) أن هذه الفصاحة لم تجر على لغة القوم .

هل كل ما فى القرآن فى أعلى درجات الفصاحة ؟

« اختلف فى تفاوت القرآن فى مراتب الفصاحة بعد اتفاقهم على أنه فى أعلى مراتب البلاغة ، بحيث لايوجد فى التركيب ماهو أشدّ تناسباً ولا اعتدالاً فى إفادة ذلك المعنى منه ، فاختار القاضى [1] المنع ، وأن كل كلمة فيه موصوفة بالذروة العليا ، وإن كان بعض الناس أحسن إحساساً له من بعض . واختار أبونصر القشيريّ وغيره التفاوت ، فقال : لاندعى أن كل

---

١ – يعنى القاضى أبابكر الباقلانى .

مافى القرآن أرفع الدرجات فى الفصاحة ، وكذا قال غيره : فى القرآن الأفصح والفصيح . وإلى هذا نحا الشيخ عزالدين بن عبدالسلام ، ثم أورد سؤلاً وهو أنه : لِمَ لَمْ يأت القرآن جميعه بالأفصح؟ وأجاب عنه الصّدر موهوب الجزرىّ بما حاصله : أنه لو جاء القرآن على ذلك ، لكان على غير النمط المعتاد فى كلام العرب من الجمع بين الأفصح والفصيح ، فلا تتم الحجة فى الإعجاز ، فجاء على نمط كلامهم المعتاد ليتم ظهور العجز عن معارضته ، ولايقولوا مثلا : أتيت بما لا قدرة لنا على جنسه ، كما لايصح من البصير أن يقول للأعمى : قد غلبتك بنظرى ، لأنه يقول له : إنما تتم لك الغلَبة ، لو كنت قادراً على النظر ، وكان نظرك أقوى من نظرى ، فأمّا إذ فقد أصل النظر ، فكيف يصح منى المعارضة (١) .

هكذا يبين لنا الإمام السيوطى أن الكلام الذى جاء فى القرآن هو من جنس كلام العرب ، واستشهد بقول العلماء ليثبت أن القرآن معجز من ناحية أن العرب هذا كلامهم لكنهم لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله لقوة أسلوبه وجمال تراكيبه على نحو معجز لا يضاهى .

---

١ ـ السيوطى ، اتقان القرآن ، ج ٢١/٤ .

الكـلام فى إعجـاز القـــرآن

لابن حزم الأندلسى *

قال أبومحمد (١) : قد ذكرنا قيام البرهان على أن القرآن معجز لايقدر أحد على مثله قد أعجز الله عن مثل نظمه جميع العرب وغيرهم من الإنس والجن بتعجيز رسول الله ﷺ الناس أن يأتوا بمثله ، وتبكيتـهم بذلك فى محافلهم ، وهذا أمر لاينكره أحد مؤمن ولا كافر ، وأجمع المسلمون على ذلك . ثم اختلـف أهل الكـلام على خمسـة أنحاء من هذه المسألة .

فالنحو الأول : قول روى عن الأشعرى : وهو أن المعجز الذى يتحدى الناس بالمجىء بمثله هو الأول الذى لم يزل مع الله تعالى ولم يفارقه قط ، ولا أنزل إلينا ولا سمعناه وهذا كلام فى غاية النقصان والبطلان ، إذ من المحال أن يكلف أحد أن يجىء بمثل ما لم يعرفه قط ولا سمعه ، فيلزمه ولابد بل هو نفس قوله إنه إذا لم يكن المعجز إلا ذلك فإن المسـموع المتلوّ عندنا ليس معجزا بل مقدوراً عليه ، أو على مثله ، وهذا كفر مجرد ولا خلاف فيه ، وأيضاً فإنه خلاف القرآن لأن الله تعالى ألزمهم بسورة أو بعشر سور منه ، وكذلك الكلام ليس هو عند الأشعرية سورا ولا هو كثيرا بل هو واحد فسقط هذا القول والحمدلله رب العالمين . وله قول آخر كقول المسلمين : إن المتلو هو المعجز .

والنحو الثانى : هل الإعجاز متماد أم قد ارتفع بتمام قيام الحجة به فى حياة رسول الله ﷺ ؟ فقال بعض أهل الكلام إن الحجة قد قامت بعجز جميع العرب عن معارضته ، ولو عورض لم تبطل بذلك الحجة التى قد

---

* ابن حزم الأندلسى ، الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ج ٢٦/٢ - ٣١ بتحقيق الدكتور/ محمد إبراهيم نصر ، والدكتور / عبدالرحمن عميرة ، دار الجيل ، بيروت ، طبعة سنة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م .

١ - هو أبومحمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام مع توسعه فى علم اللسان (ت ٤٥٦) . انظر ترجمته فى التاج المكلل للسيد أبى الطيب القنوجى ص ٧٨ ، طبعة دار اقرأ ببيروت ، لبنان .

صحت ، كما أن عصا موسى عليه السلام إذا قامت حجته بانقلابها حية لم يضره ، ولا أسقط حجته عودها عصا كما كانت . وكذلك خروج يده بيضاء من جيبه ثم عودها كما كانت . وكذلك سائر الآيات . وقال جمهور أهل الإسلام إن إعجاز القرآن باق إلى يوم القيامة ، والآية بذلك باقية إلى يوم القيامة كما كانت ، وهذا هو الحق الذى لايحل القول بغيره لأنه نص قول الله عز وجل إذ يقول : ﴿ **قُلْ لئن اجتمعت الإنْسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ (الإسراء ٨٨) . فهذا نص جلى على أنهم لايأتون بمثله بلفظ الاستقبال فصح يقينا أن ذلك على الأبد وفى المستأنف أبدا . ومن ادّعى بأن المراد بذلك الماضى فقد كذب ، لأنه لايجوز أن تحال اللغة فينقل لفظ المستقبل إلى معنى الماضى إلا بنص آخر جلى وارد بذلك أو باجماع متيقن أن المراد به غير ظاهره ، أو ضرورة ولاسبيل فى هذه المسألة إلى أحد هذه الوجوه . وكذلك قوله تعالى ﴿ **قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجنٌّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن** ﴾ عموم كل إنس وجن أبدا ، لايجوز تخصيص شىء من ذلك بغير نص ولا إجماع .

قال أبومحمد : ومن قال بالوقف وأنه ليس للعموم صيغة ، ولا للظاهر فلا حجة ههنا تقوم على الطائفة المذكورة : فصح أن إعجاز القرآن باق إلى يوم القيامة والحمد لله رب العالمين .

والنحو الثالث : ما المعجز منه ؟ أنظمه ؟ أم نصه من الإنذار بالغيوب ؟ فقال بعض أهل الكلام ، أن نظمه ليس معجزا وإنما إعجازه مافيه من الإخبار بالغيوب ، وقال سائر أهل الإسلام : بل كلا الأمرين ، نظمه وما فيه من الإخبار بالغيوب ، وهذا هو الحق الذى ما خالفه فهو باطل . برهان ذلك قول الله عز وجل ﴿ **فأتوا بسورة من مثله** ﴾ (البقرة ٢٣) فنص تعالى على أنهم لا يأتون بمثل سورة من سوره وأكثر سوره ليس فيها إخبار بغيب فكان من جعل المعجز فيه الإخبار بالغيوب مخالفا نص الله تعالى على أنه معجز من القرآن فسقطت هذه الأقاويل الفاسدة والحمدلله رب العالمين .

والنحو الرابع ماوجه إعجازه ؟ فقالت طائفة : وجه إعجازه كونه فى أعلى مراتب البلاغة . وقالت طوائف إنما وجب إعجازه لأن الله تعالى منع الخلق من القدرة على معارضته فقط . فأما الطائفة التى قالت إنما إعجازه لأنه فى أعلى رتب البلاغة فإنهم شغبوا فى ذلك ، بأن ذكروا آيات منه مثل قوله تعالى ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾ (البقرة ١٧٩) ونحو هذا ، وموّه بعضهم بأن قال لو كان ماتقولون من أن الله تعالى منع من معارضته فقط لوجب أن يكون أغث مايمكن أن يكون من الكلام فكانت تكون الحجة بذلك أبلغ .

قال أبومحمد : مانعلم لهم شغبا غير هذين وكلاهما لاحجة لهم فيه ، أما قولهم لو كان كما قلنا لوجب أن يكون أغث مايمكن أن يكون من الكلام ، وكانت الحجة بذلك أبلغ فهذا هو الكلام الغث حقا لوجوه :

أحدها : أنه قول بلا برهان لأنه يعكس عليه قوله نفسه ، فيقال له بل لو كان إعجازه لكونه فى أعلى درج البلاغة لكان لا حجة فيه . لأن هكذا كان يكون كل من كان فى أعلى طبقة . وأما آيات الأنبياء فخارجة عن المعهود فهذا أقوى من شغبهم .

وثانيها : أنه لايسأل الله تعالى عما يفعل . ولا يقال له لم عجزت بهذا النظم دون غيره ولم أرسلت هذا الرسول دون غيره؟ ولم قلبت عصا موسى عليه السلام حية دون أن تقلبها أسدا؟ وهذا كله حمق ممن جاء به لم يوجبه قط عقل وحسب الآية أن تكون خارجة عن المعهود فقط

وثالثها : أنهم حين طردوا سؤالهم ربهم بهذا السؤال الفاسد لزمهم أن يقولوا هلاّ كان هذا الإعجاز فى كلام بجميع اللغات فيستوى فى معرفة إعجازه العرب والعجم لأن العجم لايعرفون إعجاز القرآن إلا بإخبار العرب فقط ، فبطل هذا الغث الفث والحمدلله رب العالمين .

قال أبومحمد : وأما ذكرهم « ولكم فى القصاص حياة » . وماكان وما نحوها من الآيات فلا حجة لهم فيها ويقال لهم إن كان ماتقولون - ومعاذ الله تعالى من ذلك - فإنما المعجز منه على قولكم هذه الآيات خاصة ، وأما سائره فلا . وهذا كفر لايقول به مسلم . فإن قالوا جميع القرآن مثل هذه الآيات فى الإعجاز ، قيل لهم فلم خصصتم بالذكر هذه الآيات دون غيرهما إذن؟ وهل هذا منكم إلا إيهام لأهل الجهل أن من القرآن معجزاً وغير معجز ..؟ ونقول لهم قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وأوحينا إلى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا** ﴾ (النساء ١٦٣) .

أمعجز هو على شروطكم فى كونه فى أعلى درجات البلاغة أم ليس معجزا؟ فإن قالوا ليس معجزا كفروا ، وإن قالوا : هو معجز صدقوا . وسئلوا : هل على شروطكم فى أعلى درج البلاغة؟ فإن قالوا نعم . كابروا وكفوا مؤنتهم لأنها أسماء رجال فقط ليس على شروطهم فى البلاغة . وأيضا فلو كان إعجاز القرآن لأنه فى أعلى درجات البلاغة لكان بمنزلة كلام الحسن وسهل بن هارون (١) والجاحظ ، وشعر امرىء القيس (٢) ومعاذ الله من

---

١ - هو : سهل بن هارون بن راهبون أبوعمر الدّستميانى ، يلقب « بزر جمهر » الإسلام ، فارسى الأصل اشتهر بالبصرة ، واتصل بخدمة هارون الرشيد ، ثم خدم المأمون فولاه رياسة خزانة الحكمة ببغداد ، وكان شعوبياً يتعصب للعجم على العرب ، والجاحظ كثير الإعجاب به . له كتاب «ثعلة وعفرة » على نسق كتاب « كليلة ودمنة » ألفه للمأمون ، وكتاب الأخوان و « الرسائل » ولا نعلم شيئا عن مصير كتبه إلا رسالة فى البخل أوردها ابن عبد ربه فى العقد توفى عام ٢١٥هـ.

٢ - امرىء القيس : هو امرؤ القيس بن عانس بن المنذر امرؤ القيس بن السمط بن عمرو بن معاوية ، من كنده ، شاعر مخضرم ، من أهل حضرموت ولد بها فى مدينة « تريح » وأسلم عند ظهور الإسلام ، ووصول الدعوة إلى بلاده ، ووفد على النبى ﷺ ، ثم لما ارتدت حضرموت ، ثبت على إسلامه ، وشهد فتح حصن البخير، وانتقل فى أواخر عمره إلى الكوفة فتوفى بها ٢٥ هـ وهو صاحب القصيدة :

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلى ولم ترقد

وفى الرواية من ينسبها إلى امرىء القيس بن حجر ، والصحيح أنها لابن عانس كما حققه العينى (الأعلام) . وليس ثمة مانع من أنه ربما قصد امرأ القيس بن حجر ، الشاعر الجاهلى لأنه من أصحاب المعلقات . وهو شاعر معروف .

هذا لأن كل ماسبق في طبقته فما يؤمن أن يأتي من مماثل بمثله ضرورة فلابد لهم من هذه الخطة أو من المصير إلى قولنا إن الله تعالى منع من معارضته فقط ، وأيضا فلو كان إعجازه من أنه في أعلى درج البلاغة المعهودة لوجب أن يكون ذلك للآية ولما هو أقل من الآية ، وهذا ينقض قولهم إن المعجز منه ثلاث آيات لا أقل ، فإن قالوا فقولوا أنتم هل القرآن موصوف بأنه في أعلى درج البلاغة أم لا ؟ قلنا وبالله تعالى التوفيق : إن كنتم تريدون أن الله تعالى قد بلغ به ما أراد به ، فنعم هو بهذا المعنى في الغاية التي لاشيء . وأبلغ منها . وإن كنتم تريدون هل هو في أعلى درج بلاغة المخلوقين فلا ، لأنه ليس من نوع كلام المخلوقين لا من أعلاه ولا من أدناه ولا من أوسطه ، وبرهان هذا أن إنسانا لو أدخل في رسالة أو خطبة أو تأليف أو موعظة حروف الهجاء المقطعة لكان خارجا عن البلاغة المعهودة جملة بلا شك . فصح أنه ليس من نوع بلاغة الناس أصلا ، وأن الله تعالى تولى منع الخلق من مثله وكساه الإعجاز وسلبه جميع كلام الخلق .

برهان ذلك أن الله تعالى حكى عن قوم من أهل النار أنهم يقولون إذا سئلوا عن سبب دخولهم النار : ﴿ **قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين** ﴾ (١) .

وحكى تعالى عن كافر قال : ﴿ **إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر** ﴾ (٢) .

وحكى عن آخرين أنهم قالوا : ﴿ **لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا . أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ، ولن**

---

١ ـ المدثر : ٤٣ ـ ٤٧ .
٢ ـ المدثر : ٢٤ ـ ٢٦ .

نؤمن لِرُقيّك حتى تُنزّل علينا كتابا نقرؤه . قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾ (١) .

وكان هذا كله إذ قاله غير الله تعالى غير معجز بلا خلاف ، إذ لم يقل أحد من أهل الإسلام إن كلام غير الله تعالى معجز ، لكن لما قاله الله تعالى وجعله كلاماً له أصاره معجزا ، ومنع من مماثلته . وهذا برهان كاف لايحتاج إلى غيره والحمدلله .

النحو الخامس : مامقدار المعجز منه؟ فقالت الأشعرية ومن وافقهم إن المعجز إنما هو مقدار أقل سورة منه وهو ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ (٢) فصاعدا وأن مادون ذلك ليس معجزا واحتجوا لذلك بقول الله تعالى ﴿ **قل فأتوا بسورة من مثله** ﴾ . قالوا ولم يتحدّ تعالى بأقل من ذلك . وذهب سائر أهل الإسلام إلى أن القرآن كله قليله وكثيره معجز ، وهذا هو الحق الذي لايجوز خلافه ولاحجة لهم في قول الله تعالى﴿ **قل فأتوا بسورة من مثله** ﴾ لأنه تعالى لم يقل إن مادون السورة ليس معجزا ، بل قد قال تعالى ﴿ **على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله** ﴾ (٣) .

ولايختلف اثنان في أن كل شيء من القرآن معجز ، ثم نعارضهم في تحديدهم المعجز بسورة فصاعدا . أخبرونا : ماذا تعنون بقولكم إن المعجز مقدار سورة؟ أسورة كاملة لا أقل؟ أم مقدار الكوثر من الآيات . مقدارها في الكلمات؟ أم مقدارها في الحروف؟ . ولاسبيل إلى وجه خامس . فإن قالوا المعجز سورة تامة لا أقل ، لزمهم أن سورة البقرة حاشا آية واحدة أو كلمة واحدة من آخرها أو من ثلثها أو من نصفها أو من أولها ليست معجزة . وهكذا كل سورة . وهذا كفر مجرد لا خفاء به إذ جعلوا كل سورة في القرآن سوى كلمة من أولها أو وسطها أو من آخرها مقدوراً على مثلها ، وإن قالوا بل مقدارها في الآيات لزمهم أن آية الدّين ليست معجزة ، لأنها ليست

---

١ ـ الإسراء ٩٠ ـ ٩٣ .   ٢ ـ الكوثر : ١ .   ٣ ـ الإسراء : ٨٨ .

ثلاث آيات ، وأن آية الكرسى ليست معجزة لأنها ليست ثلاث آيات ، ولزمهم مع ذلك أن ﴿ **والفجر وليال عشر والشفع والوتر** ﴾ معجز كآية الكرسى وآيتان لأنها ثلاث آيات . وهذا غير قولهم ، ومكابرة ظاهرة أن تكون هذه الكلمات معجزة حاشا كله غير معجز ، ولزمهم أيضا أن « والضحى والفجر والعصر » هذه الكلمات الثلاث فقط معجزات لأنهن ثلاث آيات . فإن قالوا هى مفترقات غير متصلات لزمهم إسقاط الإعجاز عن ألف آية مفترقة وإمكان المجىء بمثلها ومن جعل هذا ممكنا فقد كابر العيان وخرج عن الإسلام وأبطل الإعجاز عن القرآن ، وفى هذا كفاية لمن تصح نفسه ، ولزمهم أيضا أن قوله تعالى ﴿ **ولكم فى القصاص حياة** ﴾ ليس معجزا ، وهذا نقض لقولهم : إنه فى أعلى درج البلاغة . وكذلك كل ثلاث آيات غير كلمة وهذا خروج عن الإسلام وعن المعقول . وإن قالوا بل فى عدد الكلمات ، أو قالوا عدد الحروف لزمهم شيئان مسقطان لقولهم :

أحدهما ؛ إبطال احتجاجهم بقوله تعالى ﴿ **بسورة من مثله** ﴾ لأنهم جعلوا معجزا ما ليس بسورة ، ولم يقل تعالى بمقدار سورة فلاح تمويههم . والثانى : أن سورة الكوثر عشر كلمات اثنان وأربعون حرفا وقد قال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا** ﴾ [١] .

اثنتا عشرة كلمة اثنان وسبعون حرفا وإن اقتصرنا على الأسماء فقط كانت عشرة كلمات ، اثنين وستين حرفا هذا أكثر كلمات وحروفاً من سورة الكوثر فينبغى أن يكون هذا معجزا عندكم ويكون . ﴿ **ولكم فى القصاص حياة** ﴾ غير معجز فإن قالوا إن هذا غير معجز تركوا قولهم فى مقدار إعجاز أقل سورة فى القرآن ، فى عدد الكلمات وعدد الحروف ، وإن قالوا : بل هو معجز ، تركوا قولهم فى أنه فى أعلى درج البلاغة ويلزمهم

---

١ ـ النساء ١٦٣

أيضا أننا إن أسقطنا من هذه الأسماء اسمين ومن سورة الكوثر كلمة ألاَّ يكون شيء من ذلك معجزا فظهر سقوط كلامهم وتخليطه وفساده . وأيضا إذا كانت الآية والآيتان منه غير معجزة وكان مقدوراً على مثلها فكل آية على انفرادها مقدور على مثلها. وإذا كان كذلك فكله مقدور على مثله وهذا كفر . فإن قالوا إذا اجتمعت ثلاث آيات صارت غير مقدور عليها . قيل لهم هذا غير قولكم إن إعجازه إنما هو من طريق البلاغة في الآية كهو في الثلاث ولا فرق . والحق في هذا هو ماقاله الله تعالى ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله** ﴾[١] وإن كل كلمة قائمة المعنى نعلم أنها إن تليت أنها من القرآن فإنها معجزة لايقدر أحد على المجيء بمثلها أبدا ، لأن الله تعالى حال بين الناس وبين ذلك كمن قال إن آية نبوتي أن الله تعالى يطلقني على المشي في هذا الطريق الواضح ثم لايمشي فيه أحد غيري أبدا أو مدة يسميها فهذا أعظم مايكون من الآيات وأن الكلمة المذكورة إذا ذكرت في خبر على أنها ليست قرآنا فهي غير معجزة ، وهذا هو الذي جاء به النص والذي عجز عنه أهل الأرض منذ أربعمائة عام وأربعين عاما وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ونحن نجد في القرآن الكريم إدخال معنى بين معنيين ليس منهما كقوله تعالى: ﴿**وما نتنزّلُ إلاّ بأمر ربك له مابين أيدينا وما خلفنا ومابين ذلك**﴾[٢] وليس هذا من بلاغة الناس في ورد ولا صدر، ومثل هذا في القرآن كثير والحمدلله رب العالمين » [٣] .

(انتهى كلام ابن حزم الأندلسي .)

---

١ ـ الإسراء : ٨٨ . ٢ ـ مريم : ٦٤ .

٣ ـ ابن حزم الأندلسي ، الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٢١/٣ ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٥م . .

كلام الإمام السيوطى فى إعجاز القرآن الكريم

قال الإمام جلال الدين عبدالرحمن السيوطى فى كتاب الإتقان فى علوم القرآن مانصه :

« اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدّى ، سالم عن المعارضة ، وهى إما حسّية وإما عقلية ، وأكثر معجزات بنى إسرائيل كانت حسيّة لبلادتهم وقلة بصيرتهم ، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم ، وكمال أفهامهم ، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصّت بالمعجزة العقلية الباقية ، ليراها ذوو البصائر ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « مامن الأنبياء نبىّ إلاّ أُعطى مامثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » . أخرجه البخارى ، قيل إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه العادة فى أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات ، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شىء مما أخبر به أنه سيكون ، يدل على صحة دعواه . وقيل : المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسيّة تشاهد بالأبصار ، كناقة صالح وعصا موسى ، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة ، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر ، لأن الذى يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده ، والذى يشاهد بعين العقل باقٍ ، يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً » (١)

قال فى فتح البارى : ويمكن نظم القولين فى كلام واحد ؛ فإن محصلهما لاينافى بعضه بعضا ، ولاخلاف بين العقلاء ، أن كتاب الله تعالى معجز لم يقدر واحد على معارضته بعد تحدّيهم بذلك ، قال تعالى :

---

١ ـ السيوطى ، الاتقان فى علوم القرآن ، ج ٤ ص ٣ .

﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ (١) .
فلولا أن سماعه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه ، ولايكون حجة إلا وهو معجزة ، وقال تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربّه قُلْ إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ (٢) ، فأخبر أن الكتاب آية من آياته ، كاف في الدلالة ، قائم مقام معجزات غيره وآيات من سواه من الأنبياء ، ولما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم إليهم ، وكانوا أفصح الفصحاء ، ومصاقع الخطباء ، وتحدّاهم على أن يأتوا بمثله ، وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا ، كما قال تعالى : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ (٣) ثم تحدّاهم بعشر سور منه في قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قُلْ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ﴾ (٤) ثم تحدّاهم بسورة في قوله : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله .. ﴾ (٥) الآية ، ثم كرّر في قوله : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ... ﴾ (٦) الآية ، فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء والبلغاء ، نادى عليهم بإظهار العجز وإعجاز القرآن فقال : ﴿ قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ (٧) . هذا وهم الفصحاء اللّد وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره وإخفاء أمره ، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها قطعاً للحجة ، ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدّث نفسه بشيء من ذلك ولا رامه ، بل عدلوا إلى العناد تارة ، وإلى الاستهزاء أخرى ، فتارة قالوا : «سحر» وتارة

١ـ التوبة ٦ .
٢ ـ العنكبوت ٥٠ ، ٥١ .
٣ ـ الطور ٣٤.
٤ ـ هود ١٣ ، ١٤ .
٥ ـ يونس ٣٨ .
٦ ـ البقرة ٢٣ .
٧ ـ الإسراء ٨٨ .

قالوا : « شعر » وتارة قالوا « أساطير الأولين » ، كل ذلك من التحيّر والانقطاع ، ثم رضوا بتحكيم السيف فى أعناقهم وسبى ذراريهم وحرمهم ، واستباحة أموالهم ، وقد كانوا آنف شيء وأشده حمية ، فلو علموا أن الإتيان بمثله فى قدرتهم لبادروا إليه ، لأنه كان أهون عليهم ، كيف وقد أخرج الحاكم عن ابن عباس قال : جاء الوليد بن المغيرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ ، له ؛ فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : ياعمّ ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ؛ فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله ، قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك إنك كاره له ، قال : وماذا أقول! فوالله مافيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله مايشبه الذى يقول شيئا من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة . وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ماتحته ، قال : لايرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، قال : دعنى حتى أفكّر ، فلما فكّر قال : هذا « سحر يؤثر » ، يأثره عن غيره .

قال الجاحظ : بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر ماكانت العرب شاعراً وخطيباً ؛ وأحكم ماكانت لغةً ، وأشد ماكانت عدّةً ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة ، فلما قطع العذر ، وأزال الشبهة ، وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية ؛ دون الجهل والحيرة ، حملهم على حظهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ، ونصبوا له ، وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبنى أعمامهم ، وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحاً ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحدّياً لهم بها ، وتقريعاً لعجزهم عنها تكشّف من نقصهم ماكان مستوراً ، وظهر منه ماكان خفيًا ، فحين لم يجدوا حيلة ولاحجة قالوا له : أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف ، فلذلك يمكنك مالا يمكننا . قال : فهاتوها مفتريات ، فلم

يرم ذلك خطيب ، ولاطمع فيه شاعر ، ولاطبع فيه لتكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكايد فيه ، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض ، فدلّ ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم ، واستحالة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم ، وعارض شعراء أصحابه ، وخطباء أمته لأن سورةً واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله ، وأفسد لأمره ، وأبلغ في تكذيبه وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان ، وإنفاق الأموال ، وهذا من جليل التدبير الذى لايخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأى والعقل بطبقات ، ولهم القصيد العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة ، والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج ، واللفظ المنثور ، ثم يتحدّى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم ، فمحال - أكرمك الله - أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر ، والخطإ المكشوف البين ، مع التقريع بالنقص ، والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفةً ، وأكثرهم مفاخرةً ، والكلام سيّد عملهم ، وقد احتاجوا إليه ، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض ، فكيف بالظاهر! وكما أنه محال أن يطبقوا ثلاثا وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة ، فكذلك محال أن يتركوه ، وهم يعرفونه ، ويجدون السبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه! انتهى (١).

القول بالصرفة

يقول السيوطي : « لما ثبت كون القرآن معجزة نبينا صلى الله عليه وسلم وجب الاهتمام بمعرفة وجه الإعجاز ، وقد خاض الناس في ذلك كثيراً ، فبين محسن ومسيء ، فزعم قوم أن التحدى وقع بالكلام القديم الذى هو صفة الذات ، وأن العرب كلّفت في ذلك مالا يطاق ، وبه وقع عجزها . وهو مردود ، لأن مالا يمكن الوقوف عليه لايتصوّر التحدى به ،

---
(١) - السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن ، ج ٤ ، ص ٧

والصواب ماقاله الجمهور أنه وقع بالدّال على القديم وهو الألفاظ .

ثم زعم النظام [١] أن إعجازه بالصّرْفة ، أى أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم ، وكان مقدوراً لهم ، لكن عاقهم أمر خارجىّ ، فصار كسائر المعجزات . وهذا قول فاسد بدليل : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾ [٢] الآية ، فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة لم يبق لهم فائدة لاجتماعهم ، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره ، هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن ، فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة إعجاز ! بل المعجز هو الله تعالى ، حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله .

وأيضا فيلزم من القول بالصّرْفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدّى ، وخلوّ القرآن من الإعجاز ، وفى ذلك خرق لإجماع الأمة ؛ أن معجزة الرسول العظمى باقية ولامعجزة له باقية سوى القرآن .

قال القاضى أبوبكر : « ومما يبطل القول بالصّرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة - وإنما منع منها الصّرْفة - لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون بالمنع معجزاً ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره فى نفسه . قال : وليس هذا بأعجب من قول فريق منهم : إنّ الكل قادرون على الإتيان بمثله ، وإنما تأخروا عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به ، ولا بأعجب من قول آخرين : إن العجز وقع منهم ، وأما من بعدهم ففى قدرته الإتيان بمثله ؛ وكل هذا لايعتدّ به » [٣] .

---

١ - هو أبواسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، شيخ الجاحظ وأحد رءوس المعتزلة ، وإليه تنسب الفرقة النظامية ، توفى فى خلافة المعتصم سنة بضع وعشرين ومائتين . انظر آراءه فى المواقف ٦٢٢ .

٢ - سورة الإسراء ٨٨ .

٣ - اعجاز القرآن ٤٢ ، ٤٤ بتصرف .

وقال قوم : وجه إعجازه مافيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة ، ولم يكن ذلك من شأن العرب .

وقال آخرون : ماتضمنه من الإخبار عن قصص الأولين وسائر المتقدمين حكاية من شاهدها وحضرها .

وقال آخرون: ماتضمنه من الإخبار عن الضمائر، من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل كقوله : ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا** ﴾ (١) ، ﴿ **ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله** ﴾ (٢) .

« وقال القاضى أبوبكر : وجه إعجازه مافيه من النظم والتأليف والترصيف ، وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلام العرب ، ومباين لأساليب خطاباتهم . قال : ولهذا لم يمكنهم معارضته .

قال : ولاسبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من أصناف البديع التى أودعوها فى الشعر ، لأنه ليس مما يخرق العادة ، بل يمكن استدراكه بالعلم والتدريب والتصنع به ، كقول الشعر ، ورصف الخطب وصناعة الرسالة ، والحذق فى البلاغة ، وله طريق تسلك ، فأما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى ، ولا إمام يقتدى به ، ولايصح وقوع مثله اتفاقاً . قال : ونحن نعتقد أن الإعجاز فى بعض القرآن أظهر ، وفى بعضه أدق وأغمض .

وقال الإمام فخر الدين : وجه الإعجاز الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب .

وقال الزملكانىّ : وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاص به ، لامطلق التأليف ، بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزنة ، وعلت مركّباته معنى ، بأن يوقع كل فن فى مرتبته العليا فى اللفظ والمعنى .

وقال ابن عطية : الصحيح والذى عليه الجمهور والحذاق فى وجه

---

١ ـ آل عمران ١٢٢ .   ٢ ـ المجادلة ٨ .

إعجازه ، أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالى فصاحة ألفاظه ؛ وذلك أن الله أحاط بكل شيء علماً ، وأحاط بالكلام كله علماً ، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن ، علم بإحاطته أيّ لفظة تصلح أن تلى الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن أحداً من البشر لايحيط بذلك ، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية » (١) القصوى من الفصاحة ، وبهذا يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتها الإتيان بمثله ، فصرفوا عن ذلك ، والصحيح أنه لم يكن فى قدرة أحد قط . ولهذا ترى البليغ ينقّح القصيدة أو الخطبة حولاً ، ثم ينظر فيها فيغيّر فيها وهلم جرا ، وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد . ونحن تتبيّن لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع ، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق ، وجودة القريحة . وقامت الحجة على العالم بالعرب ؛ إذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومظنّة المعارضة ، كما قامت الحجة فى معجزة موسى بالسّحرة ، وفى معجزة عيسى بالأطباء ، فإن الله إنما جعل معجزات الأنباء بالوجه الشهير أبرع ماتكون فى زمن النبى الذى أراد إظهاره ، فكان السحر قد انتهى فى مدة موسى إلى غايته وكذلك الطب فى زمن عيسى ، والفصاحة فى زمن محمد ﷺ (٢) .

وقال حازم فى منهاج البلغاء : وجه الإعجاز فى القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها فى جميعه ؛ استمراراً لايوجد له فترة ، ولايقدر عليه أحد من البشر وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم ، لاتستمر الفصاحة والبلاغة فى جميع أنحائها فى العالى منه إلا فى الشيء اليسير المعدود ، ثم تعرض الفترات الإنسانية فينقطع طيب الكلام

---

١ ـ السيوطى ، الاتقان ، ج ٤ ، ص ٩ .

٢ ـ مقدمة التفسير المطبوعة ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ونقله الزركشى فى البرهان ٢ : ٩٧ .

ورونقه ، فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه ، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه (١) .

وقال المراكشيّ في شرح المصباح : الجهة المعجزة في القرآن تعرف بالتفكّر في علم البيان ، وهو كما اختاره جماعة في تعريفه مايحترز به عن الخطإ في تأدية المعنى ، وعن تعقيده ، وتعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه لمقتضى الحال ؛ لأن جهة إعجازه ليست مفردات ألفاظه ، وإلا لكانت قبل نزوله معجزة ، ولامجرّد تأليفها ؛ وإلا لكان كل تأليف معجزا ، ولا إعرابها وإلا لكان كل كلام معرب معجزا ، ولا مجرد أسلوبه وإلا لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزاً ، والأسلوب الطريق ، ولكان هذَيان مسيلمة معجزا ؛ ولأن الإعجاز يوجد دونه أي الأسلوب في نحو : ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيًّا ﴾ (٢) ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ (٣) ، ولا بالصرف عن معارضتهم ؛ لأن تعجبهم كان من فصاحته ولأن مسيلمة وابن المقفّع ، والمعرّى وغيرهم قد تعاطوها فلم يأتوا إلا بما تمجّه الأسماع ، وتنفر منه الطباع ، ويضحك منه في أحوال تركيبه ، وبها ، أي بتلك الأحوال أعجز البلغاء وأخرس الفصحاء ، فعلى إعجازه دليل إجمالي ، وهو أن العرب عجزت عنه وهو بلسانها ، فغيرها أحرى ، ودليل تفصيليّ مقدمته التفكّر في خواص تركيبه ، ونتيجته العلم بأنه تنزيل من المحيط بكل شيء علما .

وقال الأصبهاني في تفسيره : أعلم أن إعجاز القرآن ذكر من وجهين : أحدهما إعجاز يتعلق بنفسه ، والثاني بصرف الناس عن معارضته ، فالأول إما أن يتعلق بفصاحته وبلاغته أو بمعناه ، أما الإعجاز المتعلق بفصاحته وبلاغته فلا يتعلق بعنصره ؛ الذى هو اللفظ والمعنى ؛ فإن ألفاظه ألفاظهم ، قال تعالى : ﴿ قرآنا عربيًّا ﴾ (٤) ، ﴿ بلسان عربيّ ﴾ (٥) ، ولابمعانيه فإن

---

١ ـ نقله في البرهان ٢ : ١٠١ .
٢ ـ يوسف ٨٠ .
٣ ـ الحجر ٩٤ .
٤ ـ يوسف ٢ .
٥ ـ الشعراء ١٩٥ .

كثيراً منها موجود فى الكتب المتقدمة ، قال تعالى : ﴿ وإنه لفى زبر الأولين﴾(١) ، وما هو فى القرآن من المعارف الإلهية وبيان المبدإ والمعاد والإخبار بالغيب ؛ فإعجازه ليس براجع إلى القرآن من حيث هو قرآن ، بل لكونها حاصلة من غير سبق تعليم وتعلّم ، ويكون الإخبار بالغيب إخباراً بالغيب ؛ سواء كان بهذا النظم ، أو بغيره ، مورداً بالعربية أو بلغة أخرى ، بعبارة أو بإشارة ؛ فإذن النظم المخصوص صورة القرآن واللفظ والمعنى عنصره ، وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لابعنصره ، كالخاتم والقرط والسّوار . فإنه باختلاف صورها اختلفت أسماءها ، لا بعنصرها الذى هو الذهب والفضة والحديد ، فإن الخاتم المتخذ من الذهب ومن الفضة ومن الحديد يسمى خاتما ، وإن كان العنصر مختلفا ، وإن اتخذ خاتم وقرط وسوار من ذهب اختلفت أسماؤها باختلاف صورها ؛ وإن كان العنصر واحداً .

قال : فظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص وبيان كون النظم معجزا يتوقف على بيان نظم الكلام ، ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ماعداه ، فنقول : مراتب تأليف الكلام خمس :

الأولى : ضم الحروف المبسوطة بعضها إلى بعض ، لتحصل الكلمات الثلاث : الاسم والفعل والحروف .

والثانية : تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض ، لتحصل الجمل المفيدة ، وهو النوع الذى يتداوله الناس جميعا فى مخاطباتهم ، وقضاء حوائجهم ، ويقال له : المنثور من الكلام .

والثالثة : ضم بعض ذلك إلى بعض ضمًا له مبادٍ ومقاطع ، ومداخل ومخارج ، ويقال له : المنظوم .

والرابعة : أن يعتبر فى أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ، ويقال له المسجّع.

---

١ - الشعراء ١٩٦ .

والخامسة : أن يجعل له مع ذلك وزن ، ويقال له الشعر : والمنظوم ، إمّا محاورة ويقال له الخطابة وإمّا مكاتبة ويقال له الرسالة ؛ فأنواع الكلام لاتخرج عن هذه الأقسام ، ولكل من ذلك نظم مخصوص ، والقرآن جامع لمحاسن الجميع على نظم غير نظم شيء منها ، يدل على ذلك أنه لايصح أن يقال له ، رسالة ، أو خطابة ، أو شعر ، أو سجع ، كما يصح أن يقال : هو كلام ، والبليغ إذا قرع سمعه فصل بينه وبين ماعداه من النظم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ (١) ، تنبيهاً على أن تأليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشر ، فيمكن أن يغيّر بالزيادة والنقصان كحالة الكتب الأخرى .

قال : وأما الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته ، فظاهر أيضا إذا اعتبر ؛ وذلك أنه مامن صناعة محمودة كانت أو مذمومة ؛ إلا وبينها وبين قوم مناسبات خفيّة ، واتفاقات حمليّة ؛ بدليل أن الواحد يؤثر حرفةً من الحرف ، فينشرح صدره بملابستها ، وتطيعه قواه في مباشرتها ، فيقبلها بانشراح صدرٍ ، ويزاولها باتساع قلب ، فلما دعا الله أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل وادٍ من المعاني بسلاطة لسانهم إلى معارضة القرآن ، وعجزهم عن الإتيان بمثله ، ولم يتصدّوا لمعارضته لم يخف على أولي الألباب أن صارفاً إلهيّاً صرفهم عن ذلك ، وأي إعجاز أعظم من أن يكون كافة البلغاء عجزةً ، في الظاهر عن معارضته ، مصروفةً في الباطن عنها . انتهى .

وقال السّكاكيّ في المفتاح : اعلم أن إعجاز القرآن يدرَك ، ولايمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولايمكن وصفها ، وكالملاحة ، وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ، ولايدرك تحصيله لغير ذوى الفطرة السليمة إلاّ باتقان علمى المعاني والبيان والتمرين فيهما .

---

١ ـ فصلت ٤١ ، ٤٢ .

وقال أبوحيان التوحيديّ : سئل بُندار الفارسيّ عن موضع الإعجاز من القرآن فقال : هذه مسألة فيها حيف على المعنى ، وذلك أنه شبيه بقولك : ماموضع الإنسان من الإنسان؟ فليس للإنسان موضع من الإنسان ؛ بل متى أشرت إلى جملته فقد حققته ودلّت على ذاته ، كذلك القرآن ، لشرفه لايشار إلى شيء فيه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه ، ومعجزة لمحاوله ، وهدى لقائله ، وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه ؛ فلذلك حارت العقول ، وتاهت البصائر عنده .

وقال الخطابيّ (١) : ذهب الأكثرون من علماء النظر ، إلى أن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة ، لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق .

قال : والتحقيق أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في درجات البيان متفاوتة ؛ فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح الغريب السهل ، ومنها الجائز الطّلق الرّسل ؛ وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود ؛ فالأول أعلاها ، والثاني أوسطها ، والثالث أدناها وأقربها ، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّة ، وأخذت من كل نوع شعبة ، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين ؛ لأن العذوبة نتاج السهولة ؛ والجزالة والمتانة يعالجان نوعاً من الزّعورة ؛ فكان اجتماع الأمرين في نظمه ، مع نبوّ كل واحد منهما عن الآخر فضيلة خصّ بها القرآن ، ليكون آية بيّنة لنبيه صلى الله عليه وسلم .

وإنما تعذّر على البشر الإتيان بمثله لأمور ؛ منها أن علمهم لايحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها التي هي ظروف المعاني ، ولاتدرك

---

١ - هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي ، في كتابه بيان إعجاز القرآن ، طبع ضمن ثلاثة رسائل بمطبعة المعارف .

إفهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولاتكمل معرفتهم باستيفاء جميع وجوه النظوم [١] التى بها يكون ائتلافها ، وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله ، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حاصل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم . وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة ؛ حتى لاترى شيئاً من الألفاظ فصح ولا أجزل ، ولا أعذب من ألفاظه ؛ ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً ، وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ؛ وأما معانيه فكل ذى لبٍّ يشهد له بالتقدم فى أبوابه ، والترقى إلى أعلى درجاته .

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرّق فى أنواع الكلام ؛ فأمّا أن توجد مجموعة فى نوع واحد منه ، فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير ، فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمّناً أصح المعانى من توحيد لله تعالى وتنزيه له فى صفاته ، ودعاءٍ إلى طاعته ، وبيان لطريق عبادته ، من تحليل وتحريم وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساويها ، واضعاً كل شىء منها موضعه الذى لايرى شىء أولى منه ، ولايتوهّم فى صورة العقل أمر أليق به منه ، مودعاً أخبار القرون الماضية ، ومانزل من مثلات الله بمن مضى وعاند منهم ، منبئاً عن الكوائن المستقبلة فى الأعصار الآتية من الزمان ، جامعاً فى ذلك بين الحجة والمحتجّ له ، والدليل والمدلول عليه ؛ ليكون ذلك آكد للزوم مادعا عليه، وإنباءً عن وجوب ما أمر به ونهى عنه .

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتّسق أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولاتبلغه قدرتهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته فى شكله ثم صار المعاندون له

يقولون مرة إنه شعر لما رأوه منظوما ، ومرة إنه سحر لما رأوه معجوزاً ، غير مقدور عليه . وقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب ، وقرعاً في النفوس ، يرهبهم ويحيّرهم ، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف ، ولذلك قالوا : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة . وكانوا مرة بجهلهم يقولون : ﴿أساطير الأولين اكتتبها فهى تُملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ (١) ، مع علمهم أن صاحبهم أميّ ، وليس بحضرته من يملى أو يكتب فى نحو ذلك من الأمور التى أوجبها العناد والجهل ، والعجز .

ثم قال : وقد قلت فى إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس ، وهو صنيعه فى القلوب وتأثيره فى النفوس ، فإنك لاتسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولامنثوراً ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب ، من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى حال آخر ، مايخلص منه إليه ، قال تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ (٢) وقال ﴿ الله نزّلَ أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعرّ منه جلود الذين يَخشَوْنَ ربهم ﴾ (٣) . انتهى .

وقال ابن سراقة : اختلف أهل العلم فى وجه إعجاز القرآن ، فذكروا فى ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواب ، ومابلغوا فى وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره ، فقال قوم : هو الإيجاز مع البلاغة .

وقال آخرون : هو البيان والفصاحة .

وقال آخرون : هو الرّصف والنظم .

وقال آخرون : هو كونه خارجاً عن جنس كلام العرب من النظم ، والنثر ، والخطب والشعر ، مع كون حروفه فى كلامهم ومعانيه فى خطابهم

---

١ ـ الفرقان ٥ . ٢ ـ الحشر ٢١ .

٣ ـ الزمر ٢٣ ، ومانقله الخطابى من كتابه ص ٢٢ ، ٢٣ .

وألفاظه من جنس كلماتهم ، وهو بذاته قبيل غير قبيل كلامهم ، وجنس آخر متميّز عن أجناس خطابهم ؛ حتى إن من اقتصر على معانيه ، وغيّر حروفه أذهب رونقة ، ومن اقتصر على حروفه وغيّر معانيه أبطل فائدته ؛ فكان في ذلك أبلغ دلالة على إعجازه .

وقال آخرون : هو كون قارئه لايكلّ ، وسامعه لايَمَلّ ، وإن تكررت عليه تلاوته .

وقال آخرون : هو مافيه من علم الغيب والحكم على الأمور بالقطع .

وقال آخرون : هو كونه جامعاً لعلوم يطول شرحها ، ويشق حصرها . انتهى .

وقال الزركشيّ في البرهان : أهل التحقيق على أن الإعجاز وقع بجميع ماسبق من الأقوال ؛ لابكل واحد على انفراده ؛ فإنه جمع ذلك كله ، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده ، مع اشتماله على الجميع ، بل وغير ذلك مما لم يسبق ؛ فمنها الروعة التي له في قلوب السامعين وأسماعهم ، سواء المقرّ والجاحد . ومنها أنه لم يزل ولايزال غضاً طرياً في أسماع السامعين، وعلى ألسنة القارئين . ومنها جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة ؛ وهما كالمتضادّين لايجتمعان غالبا في كلام البشر . ومنها جعله آخر الكتب غنياً عن غيره وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد يحتاج إلى بيان يرجع فيه إليه ، قال تعالى : ﴿ **إن هذا القرآن يقُصّ على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون** ﴾ (١) .

وقال الرّمانيّ : وجوه إعجاز القرآن تظهر من جهات ترك المعارضة ، مع توفّر الدواعي ، وشدة الحاجة ، والتحدّي للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والإخبار عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة . قال : ونقض العادة هو أن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة ،

---

١ ـ النمل ٧٦ ، وانظر البرهان ٣ : ١٠٦ ، ١٠٧ .

منها الشعر ، ومنها السجع ، ومنها الخُطب ، ومنها الرسائل ، ومنها المنثور الذى يدور بين الناس فى الحديث ، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة ، لها منزلة فى الحسن تفوق به كل طريقة ، وتفوق الموزون الذى هو أحسن الكلام . قال : وأما قياسه بكل معجزة فإنه يظهر إعجازه من هذه الجهة ، إذ كان سبيل فلق البحر وقلب ا لعصا حيّة ، وما جرى هذا المجرى فى ذلك سبيلا واحداً فى الإعجاز ، إذ خرج عن العادة ، وقعد الخلق فيه عن المعارضة .

وجوه الإعجاز فى القرآن

قال القاضى عياض (١) فى الشفا : اعلم أن القرآن منطوٍ على وجوهٍ من الإعجاز كثيرة ، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها فى أربعة وجوه :

أولها : حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام ، وأرباب هذا الشأن .

الثانى : صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب ، المخالف لأساليب كلام العرب ، ومنهاج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ووقفت عليه مقاطع آياته ، وانتهت إليه فواصل كلماته ، ولم يوجد قبله ولابعده نظير له . قال : وكل واحد من هذين النوعين الإيجاز والبلاغة بذاتها ، والأسلوب الغريب بذاته ، نوع إعجاز على التحقيق ، لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما ، إذ كل واحد خارج عن قدرتها ، مباين لفصاحتها وكلامها ، خلافاً لمن زعم أن الإعجاز فى مجموع البلاغة والأسلوب .

الثالث ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيّبات ومالم يكن ، فوُجد كما ورد .

---

١ ـ هو القاضى عياض بن موسى بن عياض اليحصبى الأندلسى ، صاحب كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، وغيره وإمام وقته فى الحديث وعلومه ، توفى سنة ٥٤٤ هـ . الديباج المذهب ١٦٨.

الرابع : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة ؛ مما كان لايعلم منه القصة الواحدة إلا الفذّ من أحبار أهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلّم ذلك ، فيورده صلى الله عليه وسلم على وجهه ويأتى به على نصّه ؛ وهو أمّىّ لايقرأ ولايكتب .

قال : فهذه الوجوه الأربعة من إعجازه بيّنة لانزع فيها . ومن الوجوه فى إعجازه غير ذلك آى وردت بتعجيز قوم فى قضايا وإعلامهم أنهم لايفعلونها، فما فعلوا ولا قدروا على ذلك ، كقوله لليهود : ﴿ فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنّوه أبداً ﴾ (١) ، فما تمنّاه أحد منهم ، وهذا الوجه داخل فى الوجه الثالث .

ومنها الروعة التى تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم ، والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته ، وقد أسلم جماعة عند سماع آيات منه كما وقع لجبير بن مطعم أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور ، قال : فلما بلغ هذه الآية : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ إلى قوله: ﴿ المسيطرون ﴾ (٢) كاد قلبى أن يطير . قال : وذلك أول ماوقر الإسلام فى قلبى . وقد مات جماعة عند سماع آيات منه أفردوا بالتصنيف .

ثم قال : ومن وجوه إعجازه كونه آية باقية ، لايعدم مابقيت الدنيا ؛ مع تكفّل الله بحفظه .

ومنها أن قارئه لايملّه ، وسامعه لايمجّه ، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة ، وترديده يوجب له محبّة ، وغيره من الكلام يعادى إذا أعيد ، ويملّ مع الترديد ، ولهذا وصف صلى الله عليه وسلم القرآن بأنه « لايخلق على كثرة الترداد »

ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب ، ولا أحاط

---

١ - البقرة ٩٤ ، ٩٥ .   ٢ - الطور ٣٥ - ٣٧ .

بعلمها أحد ، فى كلمات قليلة ، وأحرف معدودة .

قال : وهذا الوجه داخل فى بلاغته ؛ فلايجب أن يعدّ فنّاً مفرداً فى إعجازه .

قال : والأوجه التى قبله تعدّ فى خواصّه وفضائله ، لا إعجازه . وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربعة الأُول فليعتمد عليها » (١) .

• • •

ومجمل القول أن القرآن يأتى على منهاج واحد فى النظم مناسب أوله آخره ، وعلى درجة واحدة فى غاية الفصاحة ، فليس يشتمل على الغث والسمين ، وسوق لمعنى واحد هو دعوة الخالق إلى الله تعالى فى أسلوب جميل لا يمله القارىء ، ولايمجه السامع ، بل كلما أعيدت قراءته زادته حلاوة ، وترديده يوجب له محبة فى النفوس ، وغيره من الكلام إذا أعيد يعادى ويمل . ولهذا وصف الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن بأنه (لايخلق على كثرة الترداد) .

وقد جمع علوماً وحوى معارفاً لم يجمعها كتاب من الكتب ولا أحاط بعلمها أحد فى كلمات قليلة بليغة وتراكيب بديعة معجزة .

يرى بعض الباحثين أن الإعجاز « ليس من الممكن أن يحصر على صورة واحدة محددة المعالم والملامح بحيث تتلاقى عندها الآراء ولاتختلف عليها المفاهيم وإنما لكل ناظر فى الإعجاز مايقع له منه ، وما ينكشف لبصيرته من سماته . وإذا كان الأمر كذلك فإن هذه النظرات الكثيرة التى دارت حول الاعجاز - وإن تقاربت وتماثلت - ليست على مستوى واحد ، ولا على طريق سواء .. بل إن لكل ناظر فى الإعجاز شيئا غير قليل من

---

١ - السيوطى ، الاتقان ، ج ٢٠/٤ .

خاصته ، قد نفضه من ذات نفسه على ماتكشف له من وجوه الاعجاز وماوقع فى نفسه منها ..... » (١) .

ولأن أمر الاعجاز لايمكن أن تحيط به أنظار الناظرين مهما كثرت ولا أن تحده مقولات القائلين وإن تجاوزت الحصر والعد فكل نظر وتدبر فى آيات القرآن الكريم ، هو وجه جديد من وجوه اعجازه ، ولو كان هذا النظر بعدد أفراد الناس فردا فردا ، وبعدد اختلاف نظرات الفرد حالا حالا ، على امتداد الزمان واختلاف الأزمنة والأوطان » (٢) .

---

١ ـ د . عبدالكريم الخطيب ، الإعجاز فى دراسات السابقين ، دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤، دار الفكر العربى ، ص ١٥٤ .

٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

القول بالصَّرْفَةِ
والرد على من قال بها

معنى الصَّرْفَة

« ذهب بعض الناظرين فى إعجاز القرآن مذهبا يخالف مايكاد ينعقد عليه الإجماع من أن الإعجاز فى القرآن فى أمور قائمة فيه ، يعجز الناس عن مجاراتها أو مساماتها كإحكام نظمه ، وروعة أسلوبه ، ودقة معانيه إلى غير ذلك من الأمور التى عدها العلماء وجوها لإعجازه .

وهذا المذهب المخالف لآراء العلماء هو مذهب من يقول بالصرفة بمعنى أن العرب إنما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن أو بسورة منه مثله ، لأن الله سبحانه قد صرفهم عن ذلك ، وأمسك بهم أن يقوموا له .. ولو قاموا له وقالوا لكان فى وسعهم أن يقولوا مثل قوله .. لأنه من جنس الكلام الذى جرى على ألسنتهم شعرا ونثرا . » (١)

والحقيقة أن العرب كانوا يعلمون تماماً أن القرآن معجز وأنهم لايستطيعون أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ولكنهم كانوا ينفسون على النبى ﷺ أن ينزل عليه القرآن من دون وجهائهم وأغنيائهم لأن الحقد كان قد ملأ قلوب كفار العرب حين أخبرهم النبى ﷺ بنبوته وأن الوحى يأتيه من عند الله ، فاتهموا النبى ﷺ بما ليس فيه فقالوا : ساحر ، وقالوا : شاعر ، وقالوا مجنون .. ونقموا عليه ماجاء به من آيات القرآن التى تتلى عليه بكرة وأصيلا ولايملكون حيالها ردا، ولايستطيعون معارضتها أو الإتيان بمثلها ؛ وهم يعلمون تمام العلم أن محمدا صادق فيما ادعى ، وصادق فيما جاءهم به من القرآن ، لكنه الكبرياء الذى أعمى قلوبهم وبصائرهم ؛ قال تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا إن هذا إلاّ إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض . إنه كان غفورا رحيما** ﴾ (الفرقان ٤-٦) . هكذا قال كفار قريش

---

١ ـ المرجع السابق ص ٣٦٥ .

ما هذا القرآن إلا كذباً اختلقه محمد من تلقاء نفسه وساعده على هذا الاختلاق قوم من أهل الكتاب ، وفى ذلك ظلم عظيم لأنهم جعلوا العربى يتلقن من الأعجمى كلاما عربيا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب فكان كلامهم فيه محض الكذب والزور فى حق سيدنا رسول الله ، وقالوا فى حق القرآن أيضا : أنه خرافات الأمم السابقين أمر أن تكتب له فهى تقرأ عليه صباح مساء ليحفظها ، قال ابن عباس القائل هو النضر بن الحارث وأتباعه(١) .

ولقد بيّن الله لهم فساد هذا الزعم بالحجة القوية فى قوله تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعلّمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ (النحل ١٠٣) فالله سبحانه وتعالى يرد على المشركين قائلا لهم قد علمنا مقالة المشركين الشنيعة وزعمهم أن هذا القرآن من تعليم « جبر الرومى » وهو الذى يزعمون أنه علمه ويشيرون إليه تعليم محمد ، فكيف يمكن لمن لسانه أعجمى أن يعلم محمدا هذا الكتاب العربى المبين ؟ ومن أين للأعجمى أن يذوق بلاغة هذا الكتاب المعجز فى فصاحته وبيانه ؟! (٢) .

ولقد ذهب الكفار المعاندون فى غيهم وكذبهم إلى أبعد من ذلك فقالوا : ﴿ .. قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ (الأنفال ٣١-٣٣) فهم قد قالوا مكابرة وعناداً : قد سمعنا هذا الكلام ولو أردنا لقلنا مثله فما فى هذا القرآن الذى تتلوه علينا إلا أكاذيب وأباطيل وحكايات الأمم السابقة سطروها ، وليس كلام الله تعالى ، قال أبو السعود : وهذا غاية المكابرة ونهاية العناد ، كيف لا ، ولو

١ ـ راجع ، الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج ٢ / ٣٩٥ .
٢ ـ المرجع السابق ، ج ١٤٣/٢ .

استطاعوا لما تأخروا !! فما الذى كان يمنعهم وقد تحداهم عشر سنين؟ وقورعوا على العجز ، ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوه ، مع أنفتهم ، وفرط استنكافهم أن يغلبوا لاسيما فى باب البيان ؟! ثم إنهم طلبوا من الله أن ينزل عليهم حاصبا وحجارة من السماء أو يصيبهم بعذاب أليم ، وهذا تهكم منهم واستهزاء ، قال ابن كثير : « وهذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم ، وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ولكنهم استعجلوا العقوبة بالعذاب لسفههم ، ولكن الله سبحانه وتعالى إكراما للنبى محمد ﷺ لم يعذبهم ولم يستجب لقولهم فقد جرت سنة الله وحكمته ألاّ يعذّبَ أمةً ونبيها بين ظهرانيها ، قال ابن عباس : « لم تعذب أمة قط ونبيها فيها » ، وماكان الله ليعذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون الله » (١) .

ثم إن الله تعالى قد سلى نبيه لتكذيب قومه له فقال ﴿ **قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ (الأنعام ٣٣) .

أى قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم ، قال الحسن : « كانوا يقولون إنه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون ، ولكنهم فى دخيلة أنفسهم لايكذبونك بل يعتقدون صدقك ولكنهم يجحدون عن عناد فلا تحزن لتكذيبهم » ، قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يسمى الأمين فعرفوا أنه لايكذب فى شيء ولكنهم كانوا يجحدون فكان أبوجهل يقول : مانكذبك يامحمد وإنك عندنا لمصدق وإنما نكذب ماجئتنا به » (٢) .

وروى أن الأخنس بن شريق التقى بأبى جهل بن هشام فقال له :
ـ يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس

---

١ ـ راجع ، الصابونى ، صفوة التفاسير ، ج ١ / ٥٠٢ .
٢ ـ المرجع السابق ج ٣٨٦/١ .

عندنا أحدٌ غيرنا .

فقال أبوجهل : والله إن محمداً لصادق وما كَذَبَ قَطُّ ، ولكن إذا ذهب (بنو قصى) باللواء ، والسقاية ، والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟

فأنزل الله : **﴿ قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحَدون ﴾** (الأنعام ٣٣) .

أول من قال بأن الناس قادرون على أن يأتوا بمثل القرآن :

ولقد اغتر بقول الكفار **﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا .. ﴾** بعض جماعات المعتزلة التى ظهرت فى القرن الثالث الهجرى ، حين اتسعت دائرة البحوث فى القرآن الكريم واحتدمت المعارك ، وكثرت الخلافات المذهبية ، وعنف الجدل حول الآراء الكلامية ، وكان إعجاز القرآن أحد الميادين الرحيبة التى تبارت فيها الفحول ، فزعم قوم من العقلانيين أن فصحاء العرب كانوا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولكن الله صرف قلوبهم عن ذلك .

وربما كان أول من قال بأن الناس قادرون على أن يأتوا بمثل القرآن هو أبوموسى المردار المعتزلى وكان يقال له : راهب المعتزلة وهو الذى بالغ فى القول بخلق القرآن ، وهو تلميذ بشر بن المعتمر . فقد ورد فى ترجمة فرقة المردارية وهم أصحاب عيسى بن صبيح المكنى بأبى موسى ، الملقب بالمردار (ت ٢٢٦) أنه انفرد بمسائل منها :

ـ قوله فى القرآن : إن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحةً ونظما وبلاغة ـ وأن المردار هو الذى بالغ فى القول بخلق القرآن [١] .

---

١ ـ الشهرستانى ، الملل والنحل ، بتحقيق الاستاذ / عبدالعزيز محمد الوكيل ، ج ٦٩/١ ، طبعة مؤسسة الحلبى ، القاهرة .

وهناك أيضا بعض من زعم هذا الزعم من فرقة الأشعرية ؛كما جاء فى ترجمة الشهرستانى لفرقة الأشعرية المنسوبة إلى أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى (ت٣٢٤) ، المنتسب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، حيث قال الشهرستانى : « والقرآن عنده - أى الأشعرى - معجزة من حيث البلاغة والنظم والفصاحة إذ خير العرب بين السيف وبين المعارضة فاختاروا أشد القسمين اختيار عجز عن المقابلة . ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز فى القرآن من جهة صرف الدواعى وهو المنع من المعارضة ، ومن جهة الإخبار عن الغيب . » [1]

أول من قال بالصَّرْفَة :

ويرى بعض المحدثين أن أول من قال بالصرفة هو أبواسحاق إبراهيم بن سيار النظام (ت ٢٣١) الرأس البارز فى المعتزلة وشيخها [2] واستشهد بقول الشهرستانى فى كتاب الملل النحل حيث يقول فيه : « - قوله - أي النظام - فى إعجاز القرآن إنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية ، ومن جهة صرف الدواعى عن المعارضة ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما .. » [3] .

ولاشك أن النظام فى هذا الادعاء مخطىء ، لأن الله سبحانه وتعالى تحداهم بالاتيان بعشر سور منه ففشلوا ثم تحداهم بالإتيان بسورة واحدة ففشلوا ولم يستطيعوا ، ولو استطاعوا لما وهنوا فى مضاهاته ولو بالشبه ، والنظام نفسه الذى جاء بهذه الفرية : أُسدّت عليه منافذ القول ، وطمست

---

١ - الشهرستانى ، الملل والنحل ، ج ١٠٣/١ .

٢ - عبدالكريم الخطيب ، الإعجاز فى دراسات السابقين ، ص ٣٦٤ .

٣ - الشهرستانى ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٥٧ ، طبعة مؤسسة الحلبى .

أمامه سبل البلاغة فلم يقل قولاً ولم يذهب مذهباً ؟ وكيف ؟ وقد صال وجال ، وحاجّ وجادل بأسلوب عربى مبين رصين ، وكيف ؟ وهو يرى ويسمع فى مجالس العلماء المتكلمين والشعراء فى عصره ـ من آيات البلاغة والبيان ما حفظ التاريخ الكثير منه بين أيدينا ، فأين كانت الصرفة وكيف لم تمسك بهذه الألسنة أن تصاول وتقاول ؟ »[1] .

وكل من قال بالصرفة بهذا المعنى كان كأنه لم يدرك معنى المعجزة ، ذلك لأن القرآن فى حد ذاته معجزة ، والمعجزة لا يتأتى لبشر مهما كان أن يأتى بمثلها أو ببعضها ، وقد ضربنا لذلك مثلا عصا موسى هل كان من السحرة من يستطيع أن يحول العصا إلى حية تسعى ؟ ، لقد كان هذا السعى سعيا حقيقيا لأن الحية حية حقيقية لها روح ، فلما أيقن السحرة أن العصا تحولت فى الحقيقة حية غير حبالهم التى يزيفون للناس فيها سجدوا لله لأنهم أعلم الناس بالسحر ، وعصا موسى ليست بسحر لأن فيها الروح ويستحيل عليهم أن يجعلوا حبالهم مهما أوتوا من قوة السحر تسعى بروح لأن الروح من أمر الرب سبحانه وتعالى ، وهكذا القرآن فى إعجازه ، نحن نصف الإعجاز فقط ولا ندرى كنهه ولا يمكن لبشر أن يأتى بمثله أو ببعضه فيستحيل على أهل اللغة والفصاحة من العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن لأنه معجزة ربانية ومن هنا يسقط كلام من قال بأن العرب كان باستطاعتهم أن يأتوا بمثل القرآن ولكن الله صرف قلوبهم عن ذلك كما لايستطيع مدع أن يدعى أن سحرة موسى كان باستطاعتهم أن يأتوا بحية مثل حية موسى ولكن الله صرفهم عن ذلك وكذلك لايستطيع مدع أن يدعى أن علماء الطب على عهد عيسى كان باستطاعتهم أن يحيوا الموتى أو يخلقوا من الطين طيرا يطير فى السماء أن الله صرف قلوبهم عن ذلك .

---

(١) عبدالكريم الخطيب ، الإعجاز فى دراسات السابقين ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

وعلى فرض أننا جارينا هؤلاء الذين قالوا بالصرفة فى رأيهم بأن هناك صرْفاً من الله لقلوب العرب الفصحاء عن الإتيان بمثل القرآن فإن هذا فى حد ذاته معجزة من الله تعالى القادر على صرف قلوبهم وألسنتهم عن تقليد آيات القرآن وعن المجىء بمثلها ، فالصرف يبين لنا قدرة الله سبحانه وتعالى على صرف قلوب الفصحاء والبلغاء بمعنى إشعارهم بالعجز تجاه القرآن على أن يأتوا بمثله كعجز سحرة فرعون عن الإتيان بمعجزة موسى فى العصا وفى غيرها وعجز الأطباء على عهد عيسى عن إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لأن كل ذلك إنما يحدث بإذن الله ، وإذن الله لم يقع للفصحاء من العرب لمحاكاة القرآن والإتيان بمثله أو بمثل سورة منه ؛ فالصرف بهذا المعنى فى حد ذاته من الإعجاز ولذلك لايجوز لنا أن نصف القائلين بالصرف بأنهم كفار لأنهم اعتقدوا أن فصحاء العرب قادرون على الإتيان بمثل القرآن ولكن الله صرفهم. فكان المعنى أن العرب فصحاء بلغاء ولكنهم لايستطيعون بل يعجزون وفى العجز إظهار لمقدرة الله سبحانه وتعالى واعتراف بأن القدرة له وحده .

***

الخاتمــــة

نزل القرآن بلغة العرب وهذه اللغة تتميز مفرداتها بأن لها ظلالا ينبغي التنبه لها ، وأسلوب القرآن يختص بالفصاحة والبلاغة ، لذا ينبغي لنا أن نشير إلى وجوب إلمام المتلمس لفهم فصاحة وبلاغة الأسلوب القرآني أن يكون لديه حس العربي الأصيل الذي يقدر على فهم الكلام العربي من الشعر والنثر ، وكلما زادت صلة المرء بشعر العرب ونثرهم كلما زاد فهمه لمعاني الآيات ، إذ قد يطلق اللفظ ويراد به معنى آخر ، وهذه من خصوصيات لغة القرآن ، والعرب تفهم ذلك ، فلفظ « الرَّفَث » مثلا يعني في اللغة : الفحش من القول ، وقد قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾ آية ١٩٧ ، ولكنه يقول أيضا في سورة البقرة في معرض الكلام عن الصيام ، ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ آية ١٨٧ ، والرفث هنا كناية عن الجماع وقد عدّى بحرف الجر « إلى » لتضمنه معنى الإفضاء والمعاشرة ، وكذلك قوله ﴿ فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به ﴾ ١٨٩ الأعراف ، وقوله ﴿ فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ ٢٢٣ البقرة وقوله ﴿ فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ ١٨٧ البقرة ، وكل ذلك يفيد الجماع دون التصريح بلفظه ، وقد قال ابن عباس : « إن الله عز وجل كريم حليم يكنّى » ، فالرفث ، والحرث ، والمباشرة كنايات عن الجماع .

وهذه اللغة العربية تحتاج إلى فهم دقيق من ناحية الإعراب وتصريف الكلام حتى تتربى لدى القارىء أو السامع لآيات القران ملكة الإحساس بمعنى إعجاز القرآن حين يشعر بقوة التركيب وحسن التأليف عن علم وعن بيّنة ، ففي قوله تعالى في الآية الكريمة من سورة النساء ﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا ﴾ لم يقل انظر كيف يفترون الكذب

على الله - ولايصح - لأن المضمر فى (وكفى به) يعود على أقرب مذكور ، فهو فى الآية يعود على الكذب ، ولهذا لم يصح تقديم الكذب على شبه الجملة لئلا يعود الضمير فى (به) على لفظ الجلالة فيفسد المعنى .

ومثل هذه الأمور الدقيقة ينبغى أن يفطن إليها وهى كثيرة فى علم اللغة. وقد يخلو كلام البشر من الهنات ، كما قد يضيف الانسان إلى كلامه أشياء قد أغفلها أو يحذف منه أشياء لاتروقه عند معاودة النظر فيما ألّف من قبل ، وفى هذا يقول ياقوت الحموى عبارته المشهورة :

« إنى رأيت أنه لايكتب إنسان كتابا فى يومه إلاّ قال فى غده : لو غُير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدّم لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » .

هذا فضلا عن كون التأليف البشرى لايسير على وتيرة واحدة ، فهو قد يقوى فى مواضع ويضعف فى مواضع أخرى .

والقرآن منزه عن كل ذلك فهو يسير على وتيرة واحدة لايعتريه نقص ولايستطيع بشر مهما أوتى من البلاغة والفصاحة أن يحرك كلمة منه يرى أن غيرها أنسب منها . بل إن آياته كلما تليت كلما كانت جديدة لاتملها النفس .

ثم إن للقرآن خاصية متفردة فى لغته ، تتجلى فى هذا التأثير الذى يصيب قلوب السامعين أو التالين له ممن صفت قلوبهم وطهرت سرائرهم فيزيدهم إيمانا مع إيمانهم أما الذين فسدت قلوبهم وخبثت سرائرهم فلا يزيدهم إلاّ عنادا واستكبارا وطغيانا .

يتبين لنا هذا المعنى من موقفين : أحدهما موقف عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حين سمع القرآن فى بيت أخته ، فتهاوى صرح الشك من قلبه وأذعن من فوره لكلام الله عز وجل ودب الإيمان فى كيانه فجمع نفسه وذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه فى الحال إلى آخر ما هو معلوم لنا فى تاريخ دعوة الإسلام . وثانيهما موقف الوليد بن المغيرة الذى قال بعد سماعه القرآن : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولايعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته » ثم بعد ذلك يعلن كفره ويزعم أن القرآن شيئا من قبيل السحر الذى تعارفه البشر فبدّل نعمة الله كفرا . ولقد صدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين قلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فماله من هادٍ ﴾ الزمر ٢٣ .

ولقد ناقشنا هذا المعنى فى بحثنا المتواضع على مدار الفصول الثلاثة ووجدنا أن لغة القرآن تتسم بالإيجاز والإعجاز ، وأن الأسلوب القرآنى يظهر إعجازه فى نظم المفردات ذلك النظم البديع الذى يؤاخى بين المبانى والمعانى ويشتذب المفردات غير المألوفة لندرة استعمالها فتصير على أروع ما تكون إنسجاما وملاءمة، ورأينا أن أصدق تسمية تصلح لوصف روعة الإنسجام والملاءمة إذ أردنا أن نوضح ذلك أو نشير إليه هو لفظ « مراعاة النظير » ، بصرف النظر عن تحديد مصطلحه عند البلاغيين من أنه « الجمع بين شيء وما يناسبه بغير التضاد » .

وقد توصلنا في هذا البحث إلى نتائج نوجزها فيما يلي :

١ - أن لغة القرآن تحتاج إلى فهم دقيق وروح عالية للإحساس بمعنى الإعجاز في الأسلوب الذي يتميز به كلام المولى عز وجل وأن هذا الإعجاز يتحقق من روعة الإنسجام بين الألفاظ ومراعاة المؤاخاة والائتلاف فيما بينها ومناسبة وضع الكلمة إلى جوار أختها ونظيرتها بلا نشوز أو استغراب ؛ وانتهينا من هذه الدراسة إلى أن ذلك يعد مظهراً من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم ، ورأينا أن ذلك يستدعى :

٢ - أن نجعل لمصطلح « مراعاة النظير » مفهوما أوسع من مفهومه القديم لدى البلاغيين الذى عبروا عنه بأنه (جمع شيء إلى ما يناسبه لا بالتضاد) ليكون : (هو جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه أو ما يلائمه من أحد الوجوه) كما قال صفي الدين الحلي وابن حجة الحموى ؛ ونضيف نحن إلى هذا المفهوم « بما يحقق الترابط والإنسجام » جاعلين لمراعاة النظير وجوها بعينها ؛ لأن كل وجه منها يمتد إليه بسبب يتفق مع مسماه ، وهذه الوجوه ثمانية هي : المناسبة والمؤاخاه والائتلاف وحسن النسق والإنسجام وتشابه الأطراف ، والمشاكلة واللف والنشر .

٣ - أن الجهود المبذولة من جانب البلاغيين فى هذا المجال لم تتناول سوى عدد قليل من الآيات ولا يزال الأمر بحاجة إلى التطبيقات البلاغية على سور القرآن الكريم لإبراز المعنى الذى يتبدى لنا من مراعاة النظير تقصيا منا لعرض هذا المظهر من مظاهر الإعجاز فنجمع مواطن كل وجه في القرآن كأن نستخرج مثلا وجه المشاكلة ، ثم وجه المؤاخاه ، ثم وجه اللف والنشر ، ثم تشابه الأطراف ومراعاة الفواصل ... وهكذا .. ولا يخفى علينا مدى الإفادة من وراء هذا الدرس فى الوقوف على كثير

من الفوائد التى تعين على فهم بلاغة القرآن وأنه كلام معجز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فلا يدانيه من كلام البشر شيء .

٤ - أن القدماء قد أخلصوا فى تناول الدرس اللغوى للقرآن ومنه ما يتعلق بالبلاغة وأطلقوا فى مجال البديع مسميات كثيرة لاتزال تحتاج منا إلى مناقشتها وإلقاء مزيد من الضوء عليها لتقريبها إلى الأفهام .

٥ - أن العلماء قد اختلفوا فى تفاوت الفصاحة فى القرآن الكريم بعد اتفاقهم على أنه فى أعلى مراتب البلاغة فبعضهم قال : إن كل كلمة فيه موصوفة بالذروة العليا فى حين قال بعضم بأنه جاء على نمط كلام العرب المعتاد ليتم ظهور العجز عن معارضته .

٦ - أن سائر أهل الإسلام قالوا : إن إعجاز القرآن نظمه وما فيه من الإخبار بالغيوب ، إلاّ المعتزلة قالوا : إن نظمه ليس معجزا وإنما اعجازه ما فيه من الإخبار بالغيوب .

٧ - أن بعض فرق المعتزلة زعموا أن الإعجاز بالصَّرفة ، ويُنْسَبُ إلى النظّام - أحد رءوس المعتزلة - هذا الزعم ، وهو أن العرب كان فى قدرتها الإتيان بمثل القرآن فصرفوا عن ذلك ، والحق أن العرب عجزت عنه وهو بلسانها ، وهناك فرق كبير بين الصَّرف بمعنى أن الله صَرَفَ قلوبهم عن ذلك ، وبين العجز . وهو قصورهم عن بلوغه وهم أهل البلاغة . فالعرب فصحاء بلغاء ولكنهم لايستطيعون بل يعجزون ، وفى العجز إظهار لقدرة الله سبحانه وتعالى واعتراف بأن القدرة له وحده .

ولله الحمد والمنّة .

فهرس المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم

ثانيا :

ابن أبى الإصبع المصرى ، (٥٨٥ - ٦٥٤)

١- بديع القرآن - تقديم وتحقيق حفنى محمد شرف - نشر ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

٢- تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامى .

ابن الأثير

٣- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر - تقديم وتعليق د/ أحمد الحوفى ، د/ بدوى طبانة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر - الفجالة - القاهرة.

ابن حجة الحموى ، تقى الدين أبى بكر على .

٤- خزانة الأدب وغاية الأرب - شرح عصام شعيتو . منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت - لبنان .

ابن حزم الأندلسى .

٥- الفصل فى الملل والأهواء والنحل - بتحقيق د/ محمد ابراهيم نصر، ود / عبد الرحمن عميرة - دار الجيل ، بيروت طبعة (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م) .

ابن عبد البر القرطبى .

٦- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس - بتحقيق

محمد مرسى الخولى ومراجعة د/ عبد القادر القط ، نشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر – القاهرة .

ابن العماد الأصفهانى ، عبد الحى بن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩)

٧- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب – بتحقيق لجنة احياء التراث العربى ، منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت .

ابن قيم الجوزية ، شمس الدين عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن القيم إمام الجوزية .

٨- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن – باشراف لجنة تحقيق التراث مكتبة الهلال – بيروت – لبنان .

ابن فرحون ، برهان الدين ابراهيم بن على بن محمد .

٩- الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

ابن النقيب ، أبو عبد الله جمال الدين محمد بن سلميان النقيب (ت ٦٨٨)

١٠- مقدمة تفسير ابن النقيب فى علم البيان والمعانى والبديع بتعليق د/ زكريا سعيد على – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة .

أبو عبيدة ، معمر بن المثنى .

١١- مجاز القرآن ؛ بتحيق وتعليق د/ محمد فؤاد سيزكين – نشر / محمد سامى أمين الكتبى بمصر – الطبعة الأولى (١٣٨٠ هـ - ١٩٦٢م) .

د/ بسيونى عبد الفتاح بسيونى .

١٢- علم البديع – دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع – الطبعة الأولى (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م) .

الجرجانى / عبد القاهر بن عبد الرحمن .

١٣- دلائل الإعجاز - بتعليق وشرح محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة القاهرة - مطبعة الفجالة الجديدة - بالقاهرة .

الحسن بن عثمان بن حسين المفتى .

١٤- خلاصة المعانى ، بتحقيق عبد القادر حسين - دار الاعتصام - طبعة سنة ١٩٩٣ م .

السيد رشيد رضا .

١٥- تفسير المنار - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٢ .

السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١) .

١٦- الإتقان فى علوم القرآن - بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤ .

السيوطى ؛ جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١) .

١٧- شرح عقود الجمان فى علمى المعانى والبيان - مطبعة الحلبى (١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م) .

الشهرستانى ؛ ابو الفتح محمد عبد الكريم (ت ٥٤٨)

١٨- الملل والنحل - بتحقيق الأستاذ / عبد العزيز محمد الوكيل - طبعة مؤسسة الحلبى - القاهرة .

الصابونى ؛ محمد على .

١٩- صفوة التفاسير - مكتبة الايمان بالقاهرة ، ودار الصابونى للطباعة والنشر - القاهرة - الطبعة التاسعة .

صفى الدين الحلى .

٢٠- شرح الكافية البديعية فى علوم البلاغة ومحاسن البديع - بتحقيق د/ نسيب نشاوى - دمشق (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م) .

د/ عبد الكريم الخطيب .

٢١- الإعجاز فى دراسات السابقين ، دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها . الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ - دار الفكر العربى .

عبد المتعال الصعيدى .

٢٢- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة - الجزء الرابع فى علم البديع - مكتبة الآداب - القاهرة .

القنوجى ، السيد أبو الطيب صديق بن حسن بن على بن لطف الله (ت ١٣٠٧ هـ) .

٢٣- التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الأول . طبعة دار اقرأ - بيروت - لبنان - بتصحيح وتعليق / عبد الحكم شرف الدين .

الكرمانى ، تاج القراء محمود بن حمزة (ت نحو ٥٠٥ هـ) .

٢٤- أسرار التكرار فى القرآن المسمى البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان دراسة وتحقيق عبد القادر احمد عطا ومراجعة وتعليق أحمد عبد التواب عوض - نشر دار الفضيلة - القاهرة (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) .

محمد أحمد أبو فراخ .

٢٥- الحروف المقطعة فى أوائل السور القرآنية - دراسة نقدية للتأويلات العددية والتفسيرات الإشارية - دار المنهل بجدة - دار القادسية بالاسكندرية .

﴿ فهرس الموضوعات ﴾


Bibliotheca Alexandrina
03000717